البهى الخولى

آدم عليه السلام

فَلسَفَةُ تَقويمِ الإنسَانِ وَخِلافَتِهِ

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين

آدَمُ عليه السلام

فَلْسَفَةُ تَقْوِيمِ الإِنْسَانِ وَخِلَافَتِهِ

البهى الخولى

آدم عليه السلام

فَلسَفَةُ تَقوِيمِ الإنسَانِ وَخِلَافَتِهِ

الناشر : مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - بعابدين

الطبعة الثالثة

جمادى الآخرة ١٣٩٤ هـ

يوليو سنة ١٩٧٤ م

مطبعة الاستقلال الكبرى

[illegible]

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم ، ونحمد الله سبحانه ، ونصلى ونسلم على رسول الله وآله وصحبه ... وبعد

كان للمنهاج التحليلى الذى سلكناه فى الكتابة عن أبى البشر « آدم » عليه السلام أثر طيب فى نفوس إخواننا القراء ، ظهر فى إقبالهم على الكتاب حين صدوره ، وفيما وصلنا من تعليقات نعتز بها ودعوات مباركات ندخرها عند الله سبحانه .

والكتابة عن أبينا آدم ينبغى أن تكون ممتدة امتداد الإنسانية ، لأنه سبب وجودها ، ولأن التأمل فيما جاء عنه فى القرآن يكشف عن حقيقة النفس الإنسانية الممتدة فينا ، والتى نصدر فى سلوكنا عنها .

نعم ، فإن ما قدمنا من ذلك ليس هو الكلمة الأخيرة فى نهجه ، فما هو إلا إشارة إلى الباب الذى يجب أن يسلكه الباحثون فى عرض قصص القرآن الكريم عرضاً لا يكتفى بسرد الآيات وتصنيفها بحسب موضوعاتها ، وارتباط بعضها ببعض ، بل يضيف إلى ذلك تحليل سنن الوجود ونواميس المجتمع وارتباط ذلك بفطرة الإنسان وشتى مقاصده ... فذلك سبيل يفيد علماً غزيراً ، ويكشف عن أسرار جمة ، ويفتح للذهن ألواناً من النظر ، وللبصيرة آفاقاً من العبر الدقيقة تتجدد بها وتتضاعف معرفة الإنسان لنفسه وربه ، ولما يحيط به من حقائق ظاهرة وخفية ، وعلاقة ذلك كله بمناهج صلاحه ، واستقامة أمره على هدى وصراط سوى .

وأسأل الله سبحانه أن يجعل ما نكتب زاداً لنا ولقرائنا إلى ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، إنه سميع مجيب .

البهى الخولى

القاهرة { ٢٤ شعبان سنة ١٣٧٩ هـ
{ ٢١ فبراير سنة ١٩٦٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، والصلاة والسلام على إمام المتقين ، وخاتم النبيين ، سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله وصحابته أجمعين .

وبعد . فهذه طبعة ثالثة لكتاب « آدم عليه السلام » أضفت إليها بابا بأكمله هو باب « الخلافة » فأرجو أن يتقبل الله ما تقدم ، وأن ينفع به ، إنه أكرم مسئول وأفضل مأمول ؟

البهي الخولي

{ جمادى الآخرة ١٣٩٤
يوليو ١٩٧٤ }

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ
فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ
قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ
عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾
قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾
قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ
إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ
تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ
أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ
وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ
فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ
وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ
إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ
هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلْعَظِيمُ

سورة البقرة

تمهيد

ملخص :

ليس فى الناس من يجهل قصة آدم عليه السلام ، فقد خلقه الله من طين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، وأمر الملائكة أن يسجدوا له ؛ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ، فغضب الله عليه وطرده من رحمته ، وقال يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا من حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة ، وحذرهما أن يفتنهما الشيطان فيخرجهما من الجنة . . . ولكن الشيطان استطاع أن يستدرجهما إلى ما أراد من المعصية ، فأكلا من الشجرة ... وما لبثا أن أدركهما الندم ، وأقبلا على الله يسألانه التوبة والمغفرة ، فقبل الله منهما ؛ ولكنه أخرجهما إلى الأرض حيث هبط الشيطان ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾(١) ... واستخلف الله آدم وبنيه فى الأرض ... وكانت الملائكة تستشرف إلى هذه المرتبة الرفيعة حين أخبرهم سبحانه أنه جاعل فى الأرض خليفة ، ولكن آدم وبنيه ذهبوا بشرف هذه الكرامة لما ميزهم الله به من المواهب والأسرار التى تؤهلهم لذلك .

* * *

ذلك هو ملخص قصة آدم عليه السلام — على ما يقصها القرآن الكريم ؛ وقد سبقنا إليها علماء أفاضل : كل عالجها بالأسلوب الذى يروقه ، وتناولها من زاوية النظر التى بدت له ، فالثعالبى له نهجه فى عرائسه ورواية الأخبار غير المقبولة ، وأستاذنا العلامة الشيخ عبد الوهاب النجار — رحمه الله — نص فى كتابه على الطريقة التى اتبعها فى العرض ؛ وآخرون رأوا أن يسلكوا نهجاً تربويا فيه يسر على ناشئتنا الذين لم يألفوا معاناة هذا الضرب من القصص .

---

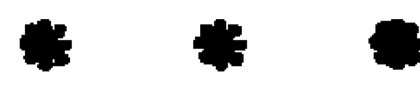
(١) طه : ١٢٣ .

وقد استخرت الله — سبحانه — أن أعرض لهذه القصة الكريمة من جانب آخر ؛ فهى قصة تكوين البشرية ، ومبدأ تقلبها فى الغواية والرشد ، ومهمتها الخطيرة التى اختيرت لها فى هذه الأرض .

عناصر البحث :

ومعلوم بالضرورة أن الإنسان ليس مخلوقا أرضيا بحتا ، ولا روحيا بحتا ؛ بل هو مزاج من المادة والروح . . . وتبدأ القصة بتقرير هذا الأصل إذ يقول سبحانه : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ [1] ﴾ .

واختلط سر الروح بخصائص التراب ، ونشأ من تلاقيهما أو تفاعلهما فى هذا الكيان البشرى ضرب من الحياة فيه من الروح سر النزوع إلى الله ، وفيه من التراب طبع الركون إلى المحسات . . أو قل : نشأ من تلاقيهما فيه مجموعة من القوى الفطرية تتنازعه ، هى القـــوى التى أفاض علماء النفس فى تحليلها وشرحها وسموها : « الغرائز » .



وفى القصة كثير من الإشارات إلى بدء نشاط هذه الغرائز ، وظهور آثارها فى عالم الواقع لأول مرة .

ففى قوله تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ : قَالَ : يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى [2] ﴾ إشارة إلى غريزة حب البقاء والمحافظة على الذات التى عمد إليها الشيطان ، فجعل يستثيرها فى نفس آدم حتى زين له الأكل من الشجرة ، وأوقعه فى المعصية .

---

(١) سورة ص : ٧١ ، ٧٢

(٢) سورة طه : ١٢٠ .

وفى قوله تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا (١) ﴾ إشارة إلى تطور الغريزة الجنسية بظهور أعضاء التناسل ، فقد كانت هذه السوءات مستورة عنهما بنص الآية الكريمة ، ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ (٢) ﴾ . . . أين كانت هذه السوءات قبل الأكل ؟ وكيف بدت وظهرت بعده ؟ وما علاقة هذه الشجرة بذلك ؟

وهناك إشارات إلى ما فى بشرية الإنسان من ضعف . . وغفلة . . وفتور عن رعاية الحدود ، مما يعتبر مزالق تزل منها الأقدام إلى المعصية . . كما أن هناك أخرى بإزائها تشير إلى أثر الروح الإلهى حين يشرق فى النفس عند تبين الخطيئة ، والندم عليها ؛ فلا يجد المرء لنفسه ملجأ من الله إلا إليه ، فيقبل عليه فى إنابة وخضوع : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ، وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣) ﴾ .

فنحن — اذن — بازاء قصة التكوين ، والنشوء ، وظهور قوى الانسان الغريزية لأول مرة فى مجال نشاطها الواقعى .

* * *

ولا بد لهذا الخلق الممتاز من رسالة ومهمة يؤديها فى هذه الأرض . . فما كان الله سبحانه ليخلق شيئاً عبثاً ، وما كان جل شأنه لينفخ من روحه فى هذا الكائن إلا ليعده لأمر جليل يتكافأ مع شرف الروح العلوى . . ولقد أشار سبحانه إلى هذا الأمر ، وهو يعرض قصة آدم ، أو تكوين هذه البشرية ونشوئها فقال جل ثناؤه : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (٤) ﴾ فالخلافة هى الرسالة أو هى الأمر الجليل الذى رشح له الإنسان ؟ — وهى خلافة عن الله سبحانه فى عمارة هذه الأرض عمارة روحية مادية .

---

(١) الأعراف : ٢٠ — (٢) الأعراف : ٢٢

(٣) الأعراف : ٢٣ — (٤) البقرة : ٣٠

والبشر لم يجهز لأداء هذه الرسالة بغرائزه الحيوانية فحسب ، ولا بخصائصه الروحية فقط ؛ وإنما جهز بما ينظم ذلك كله ، ويلائم بين بعضه وبعض ، ويجعل منه قوة إنشائية مباركة تعمر الأرض على هدى وصراط مستقيم ، تلك الموهبة هي: الاستعداد الفطري للتعلم ، فلا يفتأ باحثاً مستشرفاً لمعرفة مايعرض له من حقائق الأشياء

بهذا كله كان الإنسان أصلح لخلافة الله في هذه الأرض من الملائكة الذين لا يملكون ما يملك من المواهب ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ : أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) .

تلك هي العناصر الكبيرة البارزة في قصة أبي البشر عليه السلام .

١ — التكوين .

٢ — بدء ظهور الغرائز والقوى الحيويه في مجالها الواقعي .

٣ — المهمة الخطيرة التي أسندت إلى البشر في هذه الأرض .

والله سبحانه وتعالى إذ يقص علينا هذا القصص لا يريد مجرد الإخبار وإفادة التاريخ ولا يقصد أن يسوق للمتفهين دروساً في التشريح الجسماني والتحليل النفسي . إنما يمحص تاريخ هذه الحوادث أو حوادث هذا التاريخ ليعرف الإنسان حقائق تكوينه ، ودقائق مواهبه وقواه ، ويدرك صلته بما حوله من آفاق الكون الظاهرة والباطنة ، ليقيم تصرفه مع قوانين كل أفق بما يزكي نفسه ويصلح أمره ويتفق مع أصول رسالته التي أسندت إليه في الأرض .. . وعلى ما فهمت من هذا النهج أحاول علاج هذه العناصر الكبيرة ، والله أسأل أن يجنبنا زيغ العقيدة ومضلات الهوى ، وأن يثبتنا على المحكم الواضح من كتابه ، فلا نركن إلى ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله . إنه نعم المولى ونعم النصير ، وهو المستعان ، وبه التوفيق !!!

---

(١) البقرة : ٣١ ، ٣٢ .

الباب الأول

التّكْوين

«اذ قال ربك للملائكة
انى خالق بشراً من طين
فاذا سويته ونفخت فيه من
روحى فقعوا له ساجدين».

(١)
عناصر التكوين

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (١) ﴾

١ — تمهيد :

تعرض القرآن الكريم لبدء الحياة فى هذه الأرض فقال سبحانه ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ، يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) ﴾ .. وهذا الذى قرره القرآن منذ قرون يقرره العلماء الآن ، إذ يقولون : إن أول ظهور للحياة فى هذه الأرض إنما كان فى الماء فى صورة كائنات ضئيلة جداً تحمل سر الحياة القابلة للنمو والتكاثر والتطور والتنوع ... وتكاثرت فعلا هذه الكائنات الضئيلة ، وتطورت ، وظلت تعيش فى الماء ماشاء الله لها ، ثم أخذ بعضها يدرج منه إلى وجه الأرض يعيش عليها ، وتأقلم ذلك الذى درج إلى سطح اليابس ، وتكاثر وتطور ، فكان منه مانعهد من أنواع الحيوان ، ومالا نعهدمما انقرض نسله ، وغبر عهده .

ذلك ما يقرره القرآن ، ويقرره العلم عن بدء الحياة فى هذه الأرض ، وهو تقرير يدل على أن الأرض عرفت كثيراً من أنواع الأحياء المائية والبرية قبل أن تعرف هذا الإنسان الذى يسكنها الآن بدهور تعد بالملايين .. فلما خلق الله سبحانه آدم كانت الأرض حافلة بأصناف النبات والطير والدواب ، ولم يأمره سبحانه بالهبوط إليها إلا بعد أن علمه أسماءها وخواصها ، وسر تذليلها والانتفاع بها ، وإليه الإشارة بقوله عز وجل: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣) ﴾

---

(١) سورة ص : ٧١ ، ٧٢ (٢) سورة النور : ٤٥ (٣) — سورة البقرة: ٣١

٢ — صلة آدم بمن سكنوا الارض قبله .

وقد رأى بعض الباحثين فى قصة آدم أن يناقشوا « نظرية داروين » التى تقول : إن الإنسان ترقى عن أصل سابق مغاير لما هو عليه الآن : قد تطور بسبب عوامل ذكروها حتى صار إلى ما هو عليه الآن ، وليس أصله آدم كما تقول النصوص الدينية ... وردوا تلك النظرية بأنها لم تزل موضع البحث ولم تبلغ مرتبة العلم اليقينى بعد .

ويقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار رحمه الله : « فإذا وصل أصحاب هذه النظرية إلى الأدلة القاطعة التى تجعل هذه القضية بديهية تساوى فى بداهتها : السماء فوقنا والأرض تحتنا . كان لزاما علينا أن نؤول القرآن ليوافق الواقع كما هى القاعدة القائلة : إن القرآن يؤخذ على ظاهره بدون تأويل إلا إذا منع من ذلك مانع فيعمد إلى تأويله [1] » .

وأرى أن ذلك لو حصل — وهو بعيد جدا — فإن مرونة آيات الكتاب الكريم — وأعنى بالمرونة سعة آفاقها — تغنينا عن « التأويل » الذى يتوقعه أستاذنا الكبير رحمه الله — أو على الأقل سيكون التأويل بحيث لا يبلغ الدرجة التى يتصورها القارىء من عبارة الأستاذ التى نقلناها ، ومن يرجع إلى الآيات التى تتحدث عن بدء خلق الإنسان يقتنع بما نقول . ونكتفى عن إيرادها كلها بإيراد قوله سبحانه : ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [2] ... فالمرونة التى ترى فى هذه الآيات الكريمة وغيرها كفيلة بإقرار العقيدة التى أرساها الدين فى قلوبنا ، ولا

---

(١) قصص الأنبياء للنجار ص ١٣

(٢) السجدة : الآيات : من ٦ — ٩

خوف عليها مما يأتينا به هؤلاء ، ولا سيما أن نظريتهم لاتقول بأن الإنسان أصله قرد كما يسبق إلى ذهن من لا علم لهم .

على أن ذلك مبحث لايعود علينا بشيء من النفع فى ديننا ولا فى آخرتنا ، فالإنسان الحالى وجد نفسه على الأرض على التقويم الذى هو عليه الآن .. وصلاحه فيها لن يكون إلا بما يفعل من خير، وما يبذل فى إصلاحها من جهد ... وهو فى آخرته لن يؤخذ بما كان من أصله أيا كان هذا الأصل ، إذ ﴿ لايَجْزِى وَالدٌ عن وَلَدِه ، وَلاَ مَوْلُودٌ هوَ جَازٍ عن والِدِه شَيْئاً (١) ﴾ ورحم الله امرؤاً شغل نفسه بما يصلح معاشه ومعاده .. وهذا كلام ربنا سبحانه يقول فيه . إنه خلق الإنسان من طين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، وهو كلام فيه كل الكفاية لما نريد من خير الدنيا والآخرة .

٣ — عناصر الطين فى الانسان

أما أنه — سبحانه — خلق الإنسان من طين أو تراب ، فذلك مايؤيده الواقع ، ويقره العلم .. فلو أنك أخذت قبضة من تراب الأرض . وقطعة من جسم الإنسان ، وأجريت على كل منهما عمليات التحليل الكيموى لوجدت العناصر التى يتركب منها الجسم ، مأخوذة من العناصر التى يتركب منها التراب ، مع اختلاف مقدار كل عنصر تبعا لأهمية الوظيفة التى يؤديها فى الجسم ... ونورد فيما يلى جدولا علميا للتركيب الكيموى لجسم الإنسان نقلا عن « كتيب للمكتب الوطنى للقياسيات برقم ٤٧ .

(١) لقمان : ٣٣

العنصر	وزنه فى الجسم بالجرامات	العنصر	وزنه فى الجسم بالجرامات	العنصر	وزنه فى الجسم بالجرامات
الأكسجين	٤٥٠٠٠	الفوسفور	٧٠٠	المغنسيوم	٣٥
الكربون	١٢٦٠٠	الكبريت	١٧٥	الحديد	٤
الأيدروجين	٧٠٠٠	البوتاسيوم	١٤٠	النحاس	١ر٠
الأزوت	٢١٠٠	الصوديوم	١٠٥	المنجنيز	٠٢ر
الكالسيوم	١٠٥٠	الكلور	١٠٥	اليود	٠٣ر

وهذا الجدول لم يتضمن إلا أهم العناصر .

وقد كتب إلينا الأستاذ الدكتور على مطاوع عميد كلية الطب بجامعة الأزهر مايلى :

(ا) عدد العناصر فى الأرض ٩٢ عنصرا .

(ب) وهناك عناصر استحدثت صناعيا — وهى غير العناصر الطبيعية الموجودة فى الطبيعة .

(حـ) خلق الإنسان من جميع عناصر الأرض .

(د) نسبة العناصر فى جسم الإنسان تختلف باختلاف الوظيفة التى يقوم بها العنصر فى الجسم ، فالكالسيوم والفوسفور مثلا يكونان الهيكل العظمى ، ولذا يوجدان فى الجسم بنسبة أعلى من نسبة كثير من العناصر ، فإن بعض تلك العناصر النادرة يوجد فى الجسم بكميات ضئيلة قد تصل إلى أجزاء من مليون من الجرام ، وهذه تقوم بدور العوامل المنشطة لبعض الخمائر فى بعض خلايا الغدد الخاصة فى الجسم مثل الكوبالت فى فيتامين ب ١٢ . ويوجد فى البنكرياس ، ويلزم لصنع الكرات الدموية الحمراء ، وفى بعض هذه الوظائف الأخرى الخلايا العصبية .

• هذا والعناصر المذكورة تنتقل من تربة الأرض إلى جسم الإنسان بما يتناوله المرء من الأطعمة . . . . والأطعمة إما نباتية وإما حيوانية .

فالنباتية مؤلفة من عناصر الأرض على ما ذكرنا ، إذ النبات إنما يستمد غذاءه من تربة الأرض أى من نفس هذه العناصر .

والأطعمة الحيوانية — أى لحوم الحيوانات — مؤلفة من العناصر التى تتألف من الأطعمة النباتية ، إذ الحيوان يعتمد فى بناء جسمه على النبات .

وعندما يموت الإنسان والحيوان والنبات تبلى أجسامهم ، وتتحلل إلى عناصرها الأولى ، وتعود إلى الأرض . . ! ثم دورة كاملة للعناصر المذكورة ، تبدأ من الأرض . . فجسم النبات والحيوان . . فجسم الإنسان . . وتنتهى إلى الأرض . . وصدق الله العظيم : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ ، وفِيهَا نُعِيدُكُمْ ومِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى(١) ﴾ .

٤ — معنى الروح :

أما قوله جل ثناؤه : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحِي(٢) ﴾ فأمر دقيق خطير كثير المزالق ، ولا نحب أن نتكلف فيه ماليس لنا به علم ، وحسبنا العلم الذى يبدو لنا من ظاهر قوله سبحانه : ﴿ وَنَفَخْت فِيه مِن رُّوحِي ﴾ . . على أن يكون مفهوما أن الله عز شأنه إذ أسند النفخ إلى ذاته فقال : ﴿ وَنَفَخْتُ ﴾ لا يريد أن له نفخاً على ما يجرى منا ، فليس كمثله شىء وهو السميع البصير . . فليعتقد كل إنسان أن النفخ حصل وليجنب نفسه تصور الهيئة التى جرى عليها ، فكل ما خطر ببالك فالله بخلافه .

أما الروح الذى أضافه سبحانه إلى نفسه فى قوله : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيه مِن روحِي ﴾ فيجب أن نعتمد فى فهمه على القرآن الكريم نفسه ، فمن قال به صدق ومن حكم به عدل . . وقد قال العلماء : إن الروح جاء فى القرآن الكريم على عدة أوجه(٣) .

---

(١) طه : ٥٥ (٢) الحجر : ٢٩ .

(٣) من كتاب الروح لابن القيم بتصرف ص ٢٢٩ .

١ — الروح المذكور فى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ[1] ﴾ وفى قوله : ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ[2] ﴾ وهو روح عظيم من أمر الله لم يذكر لنا شيئا آخر عنه .

٢ — الروح بمعنى جبريل عليه السلام : وذلك قوله سبحانه : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ[3] ﴾ فان هذا الروح الأمين هو جبريل ، إذ المعروف أنه هو الذى كان ينزل بالوحى من الله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ[4] ﴾ كذلك روح القدس لقوله تعالى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ[5] ﴾ .

٣ — عيسى عليه السلام إذ سمى بأنه روح من الله فى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ[6] ﴾ .

٤ — الروح بمعنى الوحى ، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا[7] ﴾ وقوله : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ[8] ﴾ .

٥ — روح منه تعالى يكون به استعداد الإنسان لمعالى الصفات ، وموالاة الحق ، بحيث إذا تعهد هذا الاستعداد كانت منه صفات القوة والعزة والرفعة ونحوها مما يتم به التأييد والنصر ، وهو فى قوله تعالى :

---

(١) النبأ : ٣٨ (٢) القدر : ٤ (٣) الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤
(٤) البقرة : ٩٧ (٥) النحل : ١٠٢ (٦) النساء : ١٧١
(٧) الشورى : ٥٢ (٨) النحل : ٢

﴿لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ . . . إلى قوله : أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾(١) .

فأى هذه الاستعمالات الخمسة يتضمن الروح الذى نفخه الله فى الإنسان ؟

إن العقل لا يطمئن إلى أنه الروح الذى يقوم والملائكة صفا . . ولا أنه هو جبريل ، ولا عيسى عليهما السلام . . وكذلك ليس هو الوحى . . فبقى الأخير ، وهو الروح الذى يكون به استعداد الإنسان لموالاة الحق ومعالى الصفات ، وهو الذى اختاره الإمام ابن القيم ، والنفس إليه أميل . .

ونحن نستبعد أن يكون المراد بنفخ هذا الروح هو إجراء الحياة الحيوانية فى بدن آدم عليه السلام ، للحقائق الآتية :

(أ) أن الروح لم يذكر فى القرآن الكريم بهذا المعنى قط ، وهى حقيقة أدركها الإمام ابن القيم وذكرها فى كتاب « الروح »(٢) .

(ب) إن الحياة الحيوانية أمر مشترك بين الإنسان والحيوان ، فليس له من جلالة الشأن ما يستحق أن تسجد له الملائكة حين يجرى فى بدن آدم .

(حـ) ورد فى الحديث الصحيح عن الشفاعة أن الناس من هول القيامة يأتون آدم ليشفع لهم عند الله فيقولون : **« أنت ادم ابو البشر . خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه . الخ »** (٣)

فلو كان النفخ فى آدم هو الحياة الحيوانية المشتركة بين الإنسان والحيوان لما رآها المؤمنون خصوصية ترشحه لمقام الشفاعة فى القيامة .

---

(١) المجادلة : ٢٢

(٢) من كتاب الروح لابن القيم بتصرف ص ٢٢٩

(٣) حديث الشفاعة : رواه مسلم

(د) هذا إلى أن الواقع فضلا من أمر الإنسان فى هذه الأرض يرشد إلى أنه ممتاز بخصوصية فى إدراكه وصفاته جملته سيد هذه الأرض المتصرف فى كل ما فيها من ظاهر وخفى ، وإليه الإشارة بقوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً[1] ﴾ .

• فالحياة فى آدم لم تكن حيوانية صرفة ، إنما كان ملابسها سر اللطيفة القدسية التى أمد الله بها كيانه ، فكانت سبب ما يعزى إليه من كمالات وإقبال على فضل السماء .

---

(١) الاسراء : ٧٠

(٢)
خصائص العناصر

أولا — خصائص الحس :

١ — روى أبو موسى الأشعرى عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه قال :

« ان الله عز وجل خلق ادم من قبضة قبضها من جميع الارض ؛ فجاء بنو ادم على قدر الارض : فجاء منهم الاحمر والاسود ، وبين ذلك .. والسهل والحزن .. والطيب والخبيث(١) » .

ويمكن أن يكون هذا الحديث أصلا من أصول علم النفس ، ولكننا نعرض له من ناحية المقابلة التى عقدها رسول الله بين صفات الأرض ، وصفات طبيعة البشر .. فآدم — عليه السلام — أبو البشر خلق من جميع تراب الأرض ... والأرض منها الأحمر والأسود ، وبين ذلك ، فجاء بنوه لهم ألوانهم المختلفة ... والأرض منها السهل الذى تطيب النفس لرؤيته والسير فيه ، فجاء من الناس من هو سمح الخليقة يألف الناس ويألفونه لماله من سهولة الطبع والمعاملة ... ومنها ما هو حزن — والحزن هو الأرض الوعرة الغليظة التى يشق فيها السير لما فيها من صخور وحجارة وعقبات . . فجاء من بنيه صنف غليظ خشن الطبع يعانى الناس منه ألوانا من الشراسة وسوء المعاملة ... وهكذا إلى بقية الحديث . .

والرسول عليه السلام لا يريد أن يقول : إن البيض أو الحمر من الناس لم يجيئوا كذلك إلا لأنهم من أرض بيضاء أو حمراء ولا بد . . وأن الطيب والخبيث من الناس لم يجيئوا كذلك إلا لأنهم من أرض كريمة التربة أو سبخة ولا بد ، فكم من خبيث وهو من أرض جيدة ، وكم من طيب وهو من أرض جدبة . . ذلك إلى أن السهولة والحزونة فى طبيعة الأرض ذات مفهوم يغاير صفة السهولة والحزونة

---

(١) رواه الترمذى وقال : حسن صحيح

فى بشرية الإنسان ، فالأولى حسية ظاهرة تدرك بالحس الظاهر ، والثانية معنوية تدرك بالقوى الباطنة .. إنما جاءت فى الحديث الشريف بين «جملة» صفات الأرض و « جملة » صفات بشرية الإنسان ليبرز المشابهة الواضحة بين هذين الطرفين ، وليدل على الرابطة الرمزية بين أوصاف الجبلة البشرية ، والطينة التى خلقت منها فكما أن من الأرض ما هو سهل بطبيعته ، وما هو حزن بطبيعته ، فإن من الناس — تبعاً لذلك — ما هو سهل بطبيعته ، وما هو حزن بطبيعته ، والحزن هو الأرض الوعرة الغليظة التى يشق فيها السير لما فيها من صخور وأحجار وعقبات . . . ولا شك أن العلاقة واضحة بين حال تلك الأرض ، وحال ما يقابلها من نفوس خشنة غليظة ، يعانى منها الناس ألوانا من شراسة الطبع وسوء المعاملة . وما يقال عن السهل والحزن يقال عن الطيب والخبيث .

وفى هذا الحديث النبوى الكريم إشارة إلى أن الخلق الحسن أو القبيح قد يكون طبيعة فى معدن المرء ، لا منحدرا إليه عن وراثة ، ولا مجلوبا له بكسب أو مجاهدة . .

فكما يكون المكان سهلا ، ولا فضل له فى سهولته ، أو حزنا ، ولا يد له فى تلك الحزونة ، نرى من الناس معادن طيبة تثمر الصنيع الحسن دون أن يكون لأصحابها فضل فيه ، ومعادن خبيثة ترسل الشر على سجيتها عفوا بلا تكلف . . وفى هذا المعنى يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **الناس معادن كمعادن الذهب والفضة : خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام اذا فقهوا**(١) »

وهذا مبحث من مباحث علم النفس نعرض له — فى هذا المقام — من حيث نظر الإسلام إليه وحكمه على صاحبه . . والإسلام الحنيف لا يسوى بين من

---

(١) قال السخاوى فى المقاصد الحسنة أخرجه الطيالسى والبيهقى وأصله فى الصحيح

يأتى الخير وله فيه نية تبتغى مرضاة الله ، وبين من يفعله ولا نية له ولا فقه فى شىء ، فأولئك الذين ينطوون على معادن طيبة وطباع سمحة ، لا يكتب لهم أجر ما يفعلون من خير إلا إذا كانت لهم نية وفقه مستمد من معرفة الله ، وإلا فكيف يكتب الله أجراً لامرىء لم يرفع إليه عمله ، وكيف يثيب على عمل لم يفكر فيه صاحبه فى ثوابه ؟ .

فالخير فى الاسلام ليس خيرا إلا إذا ابتغى به وجه الله ، والعنصر الطيب ليس طيبا إلا إذا استنار بمعرفته عز وجل . وهذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام :

« خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام اذا فقهوا »

ولا شك أن هذا مذهب جليل فى تقدير الرجال والأعمال : يصحح الأوضاع ويعرف لكل ذى قدر قدره ، ويعلو بالمجتمع إلى مستوى رفيع من الكمال ، إذ يجعل الأقوال والأعمال جميعا منوطة بغاية واحدة ، ومثل أعلى هو الله وحده سبحانه . . قالت عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها : « يارسول الله : ان عبدالله بن جدعان كان يطعم الطعام — فى الجاهلية — ويفعل كيت وكيت من المعروف أينفعه ذلك عند الله ؟ قال : لا. لانه لم يقل يوما: رب اغفرلى خطيئتى يوم الدين »

فلابد من النية ، ولا بد من فقه المثل الأعلى ، ولابد من الإرادة ، وكل ذلك ليس من خصائص الطين ، ولا يستطيع التراب أن يمد المرء بخلجة واحدة منه .

٢ — فى ضوء هذه الرابطة الرمزية يمكن أن ننظر فى الآيات الكريمة التى تضمنت معنى خلق الإنسان من طين . .

(أ) قال تعالى : إنه خلق آدم من طين ، وذلك قوله : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ

مِن رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ والمراد بهذا البشر هو آدم عليه السلام ، إذ هو الذى سجدت له الملائكة .

(ب) وشأن آدم من حيث أنه خلق من طين هو شأن أبنائه ، وذلك قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ﴾

(حـ) ويقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ قال فى المصباح المنير : السليل : الوليد ، والسلالة : الولد أيضا . وقال فى لسان العرب : والنطفة سلالة الإنسان . . وقال أيضاً : فقوله عز وجل : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلَالَة) . أراد بالانسان ولد آدم — جعل الانسان أسما للجنس، وقوله : مِنْ طِينٍ ، أراد أن تلك السلالة تولدت من طين خلق منه آدم فى الأصل » .

وقد رأى بعض المحدثين أن السلالة معناها : «الصفوة المنتقاة المختارة المصفاة[1]»

والذى نراه أن حمل كلمة السلالة على أنها النسل والولد هو الحق ، دون حملها على أنها الصفوة المنتقاة المختارة المصفاة » من طينة الأرض ، لأن الحديث الذى أوردنا يقول : «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الارض . فجاء بنو آدم على قدر الارض . . إلى أن يقول : «منهم الطيب والخبيث» فهى قبضة قبضها من جميع الأرض ليس فيها اصطفاء ولا اختيار . . ولا سيما أنه يقول : « وجاء منهم الطيب والخبيث » وليس من يقول : إن القبضة التى تتضمن الطيب والخبيث هى الصفوة المنتقاة المختارة المصفاة .

---

(١) هو فضيلة المرحوم الشيخ محمد بن فتح الله بدران فى كتابه الفطرة والعقيدة ص ٦١ وهو بهذا الرأى يريد أن يقول إن من كرامة الإنسان على الله أنه أحسن اختيار طينته ، ولكن السنة والنصوص لا تؤيده ، إلى أن الله تعالى وصف تلك الطينة فى موطن آخر من القرآن بأنها « من حمأ مسنون » أى من طين أسود منتن والحق أن الروح هو معقد تلك الكرمه .

(د) — ويقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ ويقول: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ .. قال فى لسان العرب : الحمأة والحمأ : الطين الأسود المنتن . .

وأما الصلصال فى قوله : « من حمأ مسنون » . فمعناه على ما جاء فى لسان العرب: «الطين اليابس الذى يصل من يبسه ، أى يصوت» ، ويقول: « إن الطين اليابس هو صلصال ، ما لم تمسه النار ، فإذا مسته النار فهو حينئذ فخار » . . وقال الراغب الأصفهانى فى المفردات : « أصل الصلصال تردد الصوت من الشىء اليابس . . وسمى الطين الجاف صلصالا » .

وظاهر من هذا التقرير اللغوى أن آنية الصلصال أقل تماسكا من آنية الفخار التى انضجتها النار ، فهى يابسة قليلة التماسك ، تحدث الصوت أى تصلصل إذا نقر عليها مثلا . .

(هـ) — ويقول تعالى فى هذه الطينة : « خلق الإنسان من صلصال كالفخار » . . فهى ليست فخاراً ، إنما هى « كالفخار » . . وكما ذهب صاحب « الفطرة والعقيدة » [1] » إلى أن السلالة هى الصفوة المنتقاة . . إلخ ، ذهب إلى أن صفات الفخار هى صفات تلك الطينة ؛ يريد بذلك الإشادة بتكريم الله للإنسان، فقد نقل بتصرف عن مقاييس اللغة لابن فارس . «أما الفخار : فأصله واحد يدل على العظم والقدم . . . ومنه الفخر والفاخر . ويعبر عن كل نفيس بالفاخر » . . مع أن الفخار الذى يعنيه ابن فارس غير الفخار الذى معنا فى الآية ، وقد نص

---

(١) الفطرة والعقيدة : ص ٦٤ .

ابن فارس نفسه على ذلك فى معجمه بقوله : « ومما شذ عن هذا الأصل الفخار من الجرار ، وهو معروف» . . فالفخار فى الآية الـكريمة لايحمل معنى النفاسة التى يراد نسبتها لطينة الإنسان ؛ فـكيف والطينة ليست فخارا ، بل هى « كالفخار » بنص القرآن .

٣ — ونخرج مما قدمنا بأن لطينة الإنسان الصفات الآتية :

(أ) السواد والنتن .. « حمأ مسنون » .

(ب) الصلصال وقلة التماسك .. « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال » .

وإذا كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد فتح باب الرمزية ، إذبين لنا أن صفات طينة الإنسان لها ما يقابلها على سبيل الرمز فى صفات بشريته ، فما عسى أن يقابل صفات السواد والنتن .. والصلصال ، وقلة التماسك فى تلك البشرية ؟.

ونريد بالبشرية — ما للإنسان من غرائز تجنح به إلى حياة الحس وطبيعة الحيوان .. وهى قد تركن به إلى أنانية الحس ، فيـكون حب الذات — حب بقائها .. وعافيتها من كل نصب .. وإيثارها بكل عرض — هو الموجه لهمته ، المخطط لـكل عمله وتصرفه .. ويكون ذلك هو المعدن المتضمن لـكل ما ترمز إليه من خصائص الحمأ المسنون ، والصلصال ..

× فسواد الحمأ يقابله فى تلك البشرية غموض المرء أى عدم وضـوحه وصراحته ، وجنوحه إلى التخفى بالدسائس والخديعـة ، ونصب المـكائد ، والغيلة والغدر ، وكل فعلة سوداء يدبرها الجبن فى خفية الظلام لا تحت أسمـاع الناس وأبصارهم . . كالرشوة ، والتزوير ، والاختلاس ، والمساومة القذرة لتيسير منفعة باطلة أو السكوت عن طواطؤ مريب .

ونتن الحمأ يقابله أمران :

الأول ، ما يصدر عن المرء من أفعال دنيئة تدعو إلى الاشمئزاز والانقباض

النفس ، كابتذال الكرامة والتضعضع لذوى الجاه زلفى إليهم ونيل رضاهم والتجسس والوشاية ، والنفاق ، وإهدار العرض والاتجار بالضمير والمقدسات فى أسواق الرأى والقلم ، وميادين التحلل ..

والثانى « مقومات » الضمير نفسه التى تصدر عنها الأفعال السابقة .. ونعنى بها « الحالة النفسية » التى تقابل حالة الطين إذا أنتن ، إذ يغدو بها المرء خبيث النفس دنساً ، بحيث لو تسنى لنا أن نبصر المعنويات : أو نشمها » لأبصرنا وشممنا ما هو أشد كراهة من الجيف ، ورحم الله أبا العتاهية إذ يقول :

أحسن الله بنا ... أن الخطايا لا تفوح
فإذا المستور منا ... بين جنبيه فضوح[1]

وقد تلقى أحد هؤلاء وأنت تعرفه ، فإذا مجرد القراسة يكشف لك منه عن خسة خنزير ، فتحس كأنك تحذره وتنقبض منه ، فإن النفوس سمات باطنة تبدو على ظاهر الوجه ، أو فى تعبير العين ، أو نحوه[2] .

تلك إشارة إلى ما يقابل خصائص الحمأ المسنون فى بشرية الإنسان ، وهو أمر جبلى فى كل نفس آدمية ، فإذا تفاوت الناس فى درجة ظهوره بحسب ما لهم من مجاهدات التزكية والتطهير ، فلابد من غفلة أو فترة ينزع فيها الطبع إلى خصائصه ، ولو على هون ، على ما يقول أحدهم .

ولا بد من أن ينزع المرء مرة ... إلى الحمأ المسنون ضربة لازب[3]

---

(١) الفضوح : المفتضح

(٢) جاء فى القرآن أن سيما النفوس تظهر فى الدنيا « تعرفهم بسيماهم » وتكون أبين ظهورا فى الآخرة : يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام »

(٣) اللازب : اللازم « وضربة لازب » مثل يعبر به عن لزوم الشىء ، قال فى لسان العرب : « صار الشىء ضربة لازب » أى لازما .

أما ما يقابل صفات الصلصال فى الإنسان ، فقد قدمنا أن صفات الصلصال هى قلة التماسك ، والصلصلة . . وقلة التماسك تبدو فى تهالك الحسيين الماديين على مطالبهم الغريزية ، وأغراضهم ، أو عجزهم عن الجهود التى يتطور بها الإنسان من طينة الحمأ إلى القيمة العلوية التى سجدت له بها الملائكة . . وهى جهود تتمثل فى الصبر عن شهوات النفس ، والثبات على المشقة فى تحقيق المثل العليا ، مع ما يقتضيه ذلك من مكارم البذل ، وصنع المعروف ، والاهتمام بمواساة الناس ، وفك ضوائقهم ، وإبطال الباطل ، ومكابدة الهواجر ، وناشىء الليل ، تصفية النفس ، وسموا إلى الله ... إن قلة التماسك تبدو فى تثاقل الحسيين الماديين أو نكولهم عما ذكرنا من تكاليف الصعود إلى القمة ، وتهالكهم فى مطالب الغرائز ، وشهوات الدنيا ، وحسبهم من ذلك أن تكون لهم صلصلة أو شنشنة باطلة عن فضائل النفس شأن الذين يقولون ما لا يفعلون ، ويحبون أن يحمدوا بما ليس فيهم . . وما أعجب ما تذكر اللغة فى صلصلة الفخار إذ يقول الراغب الأصفهانى إنه « سمى بذلك لصوته كأنما تصور بصورة من يكثر التفاخر » وحسبك بمجتمع تفاهة أن ينوء كاهل أفراده بحمل المكارم ، فلا يكون حظهم إلا فيهقة الأدعياء الذين لا يقيمون لله سنة فى قول أو عمل ...

وبعد ، فهذا مبحث عميق واسع الآفاق ، ولكنا نجتزىء منه بما قدمنا ، ونكتفى بأن نقرر أن بشرية الإنسان سلبية من حيث قدرتها على إبداع الفضائل ، أو الإمداد بها ، وألا سبيل للإنسان إلى تلك الفضائل إلا أن يمنحه الله من لدنه منحة علوية ...

ثانيا : خصائص الروح

١ — وقد منحنا الله هــــذا الفضل فنفخ فينا من روحه ، فكان للإنسان — إلى بشريته — عنصر علوى يتضمن الاستجابة لإبداع أكرم المثل ، وأشرف الفضائل .

ولا بأس أن نعيدها ما قررنا سابقا من أن الروح الذى نتحدث عنه ليس هو الروح الذى يحيا به البدن ، إنما هو — كما قلنا الآن — عنصر علوى يتضمن استعداد الإنسان لتحقيق معالى الأمور ، وأقدس الصفات .. وهو فى الإنسان حقيقة لا ترى بالعين ، ولا تلمس باليد ، ولا تحاز فى مكان . . فهى كالفكرة فى ذهن المفكر وكالخاطرة فى صدر الملهم ، وكالثقة فى نفس المؤمن ، ولا سبيل للحس إلى إدراك كنهه . مع أنه كل شىء فى وجود صاحبه ، فهو — أى الروح الذى يؤهله للارتفاع فوق مستوى الحيوان ، ويقرر له أهدافه وغايته العليا فى الحياة ، ويرسم له خطوط مناهجه ، ويضيف إلى بشريته النزوع إلى مصدر القيم والمعارف التى تجعل له حقيقة إنسان .

إن الإنسان — على ما يدل التأمل فى شأنه — قد فصل لإبداع حضارة مثلى أراد الله أن تقوم فى هذه الأرض ، فكان من تقديره تعالى أن نفخ فيه من روحه ، ليكون ذلك الروح معدن الخصب الذى تترعرع فيه مبادئه وفضائله .

● والحضارة ليست بناء حسيا لمصانع ومستشفيات ومدارس ، وجامعات وقصور ، وحصون ومؤسسات تجارية واقتصادية ونحوها ، إنما هى غاية عليا ، وقيم فاضلة فى الضمير تفرض على الإنسان أن يحققها فى ظاهر الحياة حصونا ومؤسسات وأوضاعا كريمة ، فتكون تلك الأوضاع هى التعبير عما فى الضمير ، وصورة لمقتضى غاية الإنسان وقيمه .. وشتان بين مدرسة يقتضى الإيمان بناءها لتغذى الناشىء بثقافة الحس والروح ، وتهب له قوام إنسانيته ، وتمكن قبضته من زمام الطبيعة ليوجهها إلى تحقيق غايته العليا فى الحياة .. ومدرسة تنشأ لتعلمه كيف يشبع ما له فى الحياة من رغبات الحس . . وشتان بين أوضاع ومؤسسات تقام لتأييد أحكام الحق والخير والعدل ، وأخرى لتأييد أنانية الفرد والأمة ، وتقوية بأس الدولة فيما تبغى من اغتصاب وفساد فى الأرض ... وذلك بإيجاز مفهوم الحضارة ، فهى حس ،

وروح ... والروح هو مبادىء الحق وقيمه التي يتضمنها حظ المرء من معرفة الله ... وأما الحس فهو الإمكانات التي يحصلها من الطبيعة لتكون عدته في تحقيق مقاصده .

٢ — ذلك تقرير نظرى قد يخفى على كثيرين ، ولا يسلمه الحسيون الذين لا يرون في الإنسان أى عنصر علوى . فتبيينا لهذا التقرير وإبرازا لآثار هذا العنصر نورد بعض تجارب نلقاها في حياتنا على مختلف بيئاتنا ومستوياتنا الاقتصادية والثقافية ، وهى تجارب لا يمكن حملها على منطق حسى ، ولا تفسير لها إلا صدورها عن حقيقة روحية في كيان الإنسان ؛ فمن ذلك :

(أ) لجوء عامة الناس إلى الله عند حلول الشدائد والمخاوف . . نقول عامة الناس لأن الخاصة منهم — وهم ذوو الفطر القويمة والبصائر المميزة — لا تغيب عنهم صلتهم بالله لحظة ، بل لا تغيب عنهم حاجتهم إليه سبحانه في شدة أو رخاء ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يدعو الله بقوله : **اللهم لا تكلني الى نفسي طرفة عين ، ولا ما هو اقصر من ذلك** » أما العامة — فقراء وأغنياء .. سوقة وذوو سلطان فجهدهم يقصر عن مدى ذوى البصائر ، إذ تدركهم مشاغل الدنيا واهتمامات العيش ، والافتتان بمظاهر الجاه ، وأسباب الترف واللذة ، فيستأثر ذلك بإرادتهم، وهممهم، ويبدو هو الحاضر في أذهانهم وضمائرهم ، وتغيب عنهم صلتهم بالله ، ولا يبقى في وعيهم سلطان أو منطق يعول عليه إلا سلطان المادة ومنطق المحسات... حتى إذا نزل بأحدهم مالا قبل له به من خطر يتهدد حياته ، أو حل ما يخشاه على نفسه أو على أحد من أهله ، حينئذ يتبين بفطرته أو غريزته الروحية أن سلطان المادة أو إمكانات الحس لا شأن لها بنجدة أو مدافعة . . لقد انقشع عن البصيرة وهم التعويل على أحكام الحس وفاعلية أسبابه ، فبدا للبصيرة عيانا ألا سلطان في الكون إلا سلطان الله الآخذ بناصية كل شيء في الأرض والسماء ، فيتجه إليه سائلا النجاة تضرعا وخفية : يارب : يارب . وإلى هذه الحقيقة يشير القرآن الكريم بمثل قوله تعالى : ﴿ هُوَ

الذى يُسَيِّرُكُمْ فِى البَرِّ وَالبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِى الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ، وَجَاءَهُمُ المَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ، دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١) ﴾

وقد ينجو ركاب السفينة أو يغرقون ، ولكن شاهدنا يبدو فى تحولهم من حسبان الحس المغشى لاذهانهم وضمائرهم ، إلى التشبث بسلطان غير مرئى ... ومن البديهى أن تلك حال لا يمكن أن يخدع فيها المرء نفسه ، فإذا رأيناه يسقط من حسابه كل ما كان يعتد به من أحكام الحس ، ويتجه إلى سلطان غير منظور يهتف به ويستغيثه ، فليس له من تأويل إلا أن حاسة باطنة لكائن روحى باطن أبصرت من وراء المادة مالا تبصر حواس الظاهر ومداركه المحدودة ..

وذلك — لا محالة أثر العنصر الروحى الذى نقرره للإنسان

(ب) ومنها الإحساس بحسن الحسن وقبح القبيح ..

● وليس المراد الحسن والقبح الحسيين ، على ما نرى — مثلا — فى حسن المناظر والصور أو قبحها .. إنما المراد حسن الصفات الدامة وقبحها وما يصدر عنها من قول وفعل . .

والمعروف أن حسن الحس وقبحه يدرك بحاسة النظر العادية .. ومعيار الحكم بقبحه أو حسنه يختلف بحسب عرف الناس فى بيئاتهم وعصورهم المختلفة ؛ فقد يكون النموذج البشرى جميلا فى بيئة أو عصر ما ، وقبيحا فى بيئة أخرى ، أو عصر آخر !

أما حسن الصفات وقبحها ، فلا يدرك بالحواس الظاهرة ، بل يدرك بحواس

---

(١) يونس : ٢٢

باطنة .. وتطرب له فى النفس أذواق غير أذواق الحس الحيوانى . . ومعيار الحكم فيه بالحسن أو القبح ثابت أبدا ، لايتغير بحسب عرف أو بيئة زمانية أو مكانية . فالناس مذ كانوا إلى اليوم فى كل بيئاتهم وعصورهم وأطوار أعمارهم يرون الشجاعة والكرم ، والوفاء — مثلا — صفات حسنة . ويرون الجبن والشح والغدر صفات قبيحة .

ذلك إلى أن الحسن الحسى يشيخ ويفقد قدرته على الإثارة بمرور الزمن؛ وفعل السنن وتخاذل الملامح ونذر الأجل . . أما الحسن المعنوى فلا يشيخ ولا يفقد إعجاب الناس به وثناءهم عليه فى أى وقت .

● وللناس مواقف وأحكام بإزاء ما يكون من صور حسية — جميلة أو قبيحة — تدعو للنظر والاعتبار .. فالمعروف أن النفس تهش للصورة الحسنة بحكم الأنانية الحسية التى تبتغى مايسر .. ولكن صاحب تلك الصورة أو صاحبتها إذا حرمت حظها من حسن الصفات ، فكانت نكدة شرسة ، كرهها الناس وانقبضوا عنها .

والذلك تنصرف النفس عن الصورة إذا حرمت حظها من جمال الظاهر ، فلا يكون للأنانية نشاط إليها ، ولكنها إذا أوتيت مع ذلك وفرة من فضائل النفس ومعالى الصفات ، وقع ذلك لدى الناس موقعه الحسن فإذا أفئدتهم تهوى إليها وتألفها .

● وفى هذين المثالين نجد أن داعى الأنانية الحسية معارض بعامل آخر مستكن فى فطرة الإنسان ... فإذا كانت الصورة حسنة تنشط إليها الأنانية على مافى المثال الأول : قام ذلك العامل نافراً مما لها من شرس الخليقة معارضا ميل الأنانية فيكون له الغلبة ... وإذا كانت الصورة فاقدة جمال الحس يصد عنها داعى

الأنانية على ماقى المثل الثانى ، نشط إليها ذلك العامل العتيد ، لجمال ما لها من ثروة الباطن ، معارضا صدود داعى الأنانية ، فيكون الحكم له .

● **والمعروف أن داعى البشرية فى كل فرد حقيقة قائمة لاتمسك فيها ؛** وأن له سلطانه على إرادته يوجهها به حيث يشاء ، فإذا وجدنا ذلك الداعى ينهزم أو يبطل فعله ويحل محله آثار منا قصة غالبة ، فلأنها آثار لعامل عتيد آخر ماثل فى ضمير الإنسان .. فإذا كان هذا العامل مغايرا لخصائص الحس — على ماقدمنا — بصفة قاطعة ، فأى شىء يكون إذا لم يكن هو الروح الذى قامت على تقريره شواهد النقل والعقل ؟ .

(*) إذا تعهد الإنسان حظه الروحى بالرعاية والتزكية حتى غاب على إرادته وملكاته ، وجد سروراً فى نفسه لكل ما يصدر عنه من خير ، مع أن ذلك قد يكون على حساب حظوظه الحسيه ، ويجد أسفا وانقباضا لكل ما يصدر عنه من إثم مع أن ذلك قد يكون لحساب حظوظه الحسية .... وتلك حالة قررها وأثنى عليها رسول الله — ﷺ — بقوله: (**اذا سرتك حسنتك وساءتك سيئتك ؛ فانت مؤمن**)[1]

ومن المقرر أن العامل البشرى الحى فى الإنسان لايناقض نفسه ولايعمل ضد منفعته .. ومن المقرر أيضاً أن وجدانات السرور والحزن المناقضة لرغبات البشرية لم تنشأ من غير شىء ، ولم تنشىء نفسها ، فهى صادرة — ولا بد — عن عامل عتيد قائم فى النفس ، وليس ذلك العامل — بداهة — سوى الروح الذى من خواصه الإحساس بحسن الحسن وقبح القبيح ..

٣ — إحساسه بالغضب أو الرضا تبعا لما يرى من صيانة القيم المعنوية العامة أو العبث بها .

ومن القيم المعنوية للإنسان : الحرية والمساواة ، والعدل . . . وهى تقابل قيمه الاقتصادية فى أفق الحس . . فأنانيـــــة الإنسان تسر إذا سلمت له قيمة

---

١ — رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه والطبرانى والحاكم والبيهقى

الاقتصادية ، وتغضب إذا تعرضت تلك القيم للبغى والغبن .. وهذا أمر طبيعى مسلم لا جدال فيه على ماترى بيننا .. فلو كان كل أمر الإنسان أنه كائن طاعم كاس وحسب ، لارتبط غضبه ورضاه بمنطق أنانية حسية فقط ، ولما كان له أى غضب أو رضا بماعدا ذلك .. ولنفرض أن القضاء — مثلا — بصدد قضية هامة يعرف الجمهور وجه الحق فيها ، ويتابع مراحـــــل نظرها لما يلابسها من اعتبارات عامة ، ولما تتعرض له فى الظلام من تيارات وتأثيرات استعمارية طاغية .. فإذا صدر الحـكم فيها على غير مايتوقع الناس من العدل أحسست فى نفسك — مثل مايحس غيرك — غضبا وامتعاضا ، وربما صدرت منك كلمة أو إشارة تعبر عما انفعلت به من ثورة وضيق ... فإذا كان الموضوع لايتصل بمحيطك الخاص — محيط الأقارب والأصدقاء ، أو محيط المصالح الخاصة — فإنه لامعنى لغضبك ولغضب غيرك إلا أن ثمت قوانين فى الضمير تلابس حقائق المعنويات ، كالعدل وغيره ، فلا تغفل إلا عماينال قيمها من خيانة أو عبث . . .

وإذ تبين أن تلك القوانين ليست من حساب داعى الاقتصاد فى الإنسان ، فهى بالضرورة منطق العنصر العلوى الذى نقرره ، وقد فطر الله عليه الناس كافة ، ولاسبيل بإزاء منطق تلك الظواهر إلا التسليم بالخاصية الروحية التى تحل فى المرء فتجعل له استعدادا لأن يحوز أشرف القيم ، ويحقق أكرم المثل والغايات . . .

ومما يجب التنبيه إليه أن الروح ليس خلية أوغدة تفرز إفرازها بمجرد استقرارها فى ضمير الإنسان ، إنما هى أمر علوى يتيح للإنسان أن يبدع ثماراً ليست من ثمار هذه الأرض ، إذا هو شغل نفسه بآيات الله فى الـكون أو ماتتضمن من معانى صفاته عز وجل ، فإن تلك المعانى وحدها هى التى تتفاعل مع الروح وينشأ من تفاعلها ماشاء الله من ثمر .

وهذا الذى قررنا يصل بنا إلى أن الله سبحانه حين يذكر فى القرآن الـكريم

أنه ينزل الماء على الأرض الميتة فيحييها ، وتنبت من كل زوج بهيج ، لا يريد إرشادنا إلى دقائق قدرته وحكمته فقط ، ولا إيراد البرهان على إمكان البعث فحسب ، إنما يريد إلى جانب ذلك تنبيه المؤمن إلى وجوب إحياء خصائص الروح فيه بمطالعة آثار صفات الخالق في الخلق ، ومنه قوله جل ثناؤه :

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ، وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ، اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ[1]) .

والمؤمن المخاطب بقصة آدم عليه السلام يرى في — ضوء ما قدمنا — أنه مطالب بالانبعاث إلى فضائل الحق ... يرى أن عليه أن يحيي نفسه ، وأن يستنبت في بشريته كيانا من صفات الحق وفضائل الخير ، فمن هدى إلى ذلك وأعين عليه فهو البشر الحي ، ولا معنى للحياة التي ينوه بها القرآن إلا هذا . . أما من استغنى وأصم أذنيه ومر كبهيمة الأنعام فهو الميت ، وإن سجلته دفاتر الإحصاء في عالم الأحياء . . وليس لموت النفوس معنى إلا هذا حين يرد في مثل قوله تعالى :

﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ، وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[2]﴾

ولقد هدى الصحابة رضى الله عنهم إلى إحياء قلوبهم واستنبات ما شاء الله من الفضائل في أرض بشريتهم ، وكان مددهم في ذلك كتاب الله وسنة رسوله ، وما في آيات الكون من سر الحياة . . ولقد وصف الله ذلك منهم ، وضرب المثل له في التوراة والإنجيل: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ .

---

(١) الحديد : ١٦ (٢) الأنعام : ١٢٢

ولكل زرع ثمر ، فما ثمر هذا الزرع الذى نحيا به ويحيا فينا ؟ . . ثمره الشجاعة فى الحق أينما كان ، والمجاهدة للباطل وأهله حيث وجدوا ، أى أن الغاية التى يجب أن ينتهى إليها جهد المؤمن من تربية نفسه أن يستنبت فيها الجندى المجاهد الذى تملأ الشجاعة كل أقطاره .. واقرأ معنا قوله سبحانه وتعالى فى ثمر هذا الزرع المبارك: ﴿ كَزَرعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ ، فاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى على سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ، لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّار ﴾ . فهل يبلغ المؤمن أن يغيظ الكفر ويوقع به إلا إذا استوفى كل خصائص المجاهدة والشجاعة ؟ . . ولعل مما تطيب له نفسك ويؤنسك فى هذا المقام أن تقرأ عكس ذلك فى أوصاف أولئك الفارغين الذين حرموا نفوسهم أن تحيا بالحق ، فكانت شيئا لا همة به ولا نهضة : ﴿ وكأنهم خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيحَةٍ عَلَيْهِم ﴾ . وليس أبلغ فى وصف الجبن وتفاهة صاحبه ، من ذلك الملمح الذى يصوره له أنه المقصود بالشر من كل صيحة ، ولو كانت صيحة الراعى بغنمه .

فإذا كانت خصائص الجندية والمجاهدة هى الثمرة التى ينتهى إليها لتصح الحياة فى كيان الإنسان ، فإن لهذا الزرع الزكى فضائل أخرى ، وثمارا تنضر وجه المجتمع ، واقرأ قوله تعالى فى مناقب أولئك الذين وصفوا بالزرع :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله وَالذين مَعَهُ أشدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ . . رحَمَاءُ بَيْنَهُم . . تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً . . . يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ ورضْوانًا سيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أثر السُّجودِ ، ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ ، ومثلهمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرجَ شطْأَه[1] . . الخ ﴾ .

ولا نحسب أننا بعدنا قيد شعرة عن النظر فى خصائص ما جبلنا عليه سبحانه من ناحيتى الطين وسر الروح ، فما جاءت القصة إلا لننظر فى نفوسنا هذا النظر ونسويها على مثال ما عرض علينا من جاه أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . . . والله نسأل أن يوفقنا فى ذلك إلى ما يرضيه .

(١) الفتح ٢٩ .

الباب الثاني

آفاق التكوين

تقديم

لا نريد بالتكوين هنا تركيب جسم الإنسان وتصويره من لحم ودم وعظام وجوارح وتقاسيم ، ولكنا نعنى الخطوط الجامعة التى فطر الله عليها هذا الكائن الممتاز فى صفات خُلقه ومشاعره وإدراكه وعقله المعجز الخطير . . . نعنى ذلك التقويم الروحى المادى الذى سوى عليه الإنسان ، فكان كما أخبر الله سبحانه فى قسمه . . ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسانَ فى أَحْسن تَقويم ﴾ .. أو بعبارة أقرب إلى فهمنا الحاضر ، نريد معنى « التصميم » الذى يذكر فى لغة المهندسين عندنا ويراد به الخطوط التى يقام عليها بناء بيت أو مصنع أو نحوها ليؤدى الغرض منه على أحسن حال .

ولقد كان الإنسان فى علم الله القديم — قبل أن يخلق — معنى جامعا للأوصاف التى يتألف منها كيانه المادى والروحى ، أو كان « تصميما » — ولله المثل الأعلى — ينتظر الوقت الذى يظهره الله فيه إلى حيز الحس والمثال .

ولقد خلقه الله من طين ، ونفخ فيه من روحه ؛ فإذا هو بشر إنسان ، سوى يمثل الأوصاف التى سبقت له فى علمه سبحانه .

ولقد قلنا فى الباب السابق : إن طينة الإنسان إذا أمدته بشىء فإنما تمده بخصائص الصلصال والحمأ المسنون ، أما صفات القوة والخير والنور فلا ، إذ هى فى ذلك كالأرض الميتة . . فإذا رؤى على الإنسان أثر من هذه الصفات فهو من خصائص السر الذى نفخه الله فيه من روحه

فللإنسان بإزاء الحق والخير ناحيتان : إحداهما سلبية ميتة ، وهى طبيعة الطين ...

والأخرى إيجابية حية ، وهى طبيعة الروح . . فإذا أمدت الأولى بمدد من الأخرى حَيَتْ ورويت وأثمرت ما شاء الله من فضائل .

هذا هو تصميم الإنسان ، أو التقويم الإلهى الذى سويت عليه فطرته ، ولكن هل فرغنا بعد من كل ما يتعلق « بالتكوين » أو يتصل به ؟

إنا لنعوذ بمقام الله نسأله تعظيم شأنه حتى لا نكون ممن يبتذلون له حرمة .. أقول ذلك لأنه خطر لى أن أستعين على تقريب ما أنا بصدده بضرب مثل: فإن المهندس الذى يضع « تصميم » قصر من القصور لا يقتصر فى تقدير « التصميم » على ما يجب أن يكون فى هذا القصر من حجر النوم والطعام والضيافة ومرافق المطبخ ودورات المياه ونحوها ، بل يدخل فى حسابه — حتما — صلة هذا القصر بما يجاوره من طرق وشوارع ، وجيران ، ومناظر طبيعية ، وإقبال الرياح وإدبارها ومساقط النور ، ومداخل الشمس ونحو ذلك .

وأقول — ولله المثل الأعلى — إن الإنسان خلق لمهمة فى هذا الكون ، وقد نص سبحانه على هذه المهمة وأوضحها بجلاء حين قال :(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) فكان من مقتضى حكمة الله أن يسوى هذا الكائن على المثال الذى يتكافأ مع تلك الخلافة وتُؤدَّى به مطالبها .

ولو قدر للإنسان أن يعيش وحده فى هذا الكون لا يتصل بشىء من حقائقه ولا يتصل به شىء من تلك الحقائق ، لألفينا أنفسنا بإزاء أفق محصور وكأنه مغلق عما حوله ، لا يمتاز إدراكه ومواهبه عن أى بهيمة مطموسة ، ولكان « تصميمه » حينئذ كتصميم القصر المصمت الذى لا نوافذ له ولا مداخل ولا أبواب .. ولكنا نقرأ فى القصة الكريمة إشارات عن الروح التى أمد بها كيان الإنسان .. وإشارات عن الجن إذ فسق أحدهم عن أمر ربه ، وقام يعارض الله عز شأنه ، ويقسم ويتوعد

أن سيفعل كذا وكذا بآدم وبنيه . . وإشارات عن الملائكة إذ أمرت أن تسجد لآدم فسجدت ، وإذ أمر آدم أن يتصل بهم لينبئهم بما يعلم من أسماء الأشياء ، فاتصل بهم وأنبأهم بما أمر به .. وفى القصة ـ إلى ذلك ـ نصوص كريمة على أن آدم كان يتلقى من الله سبحانه أمره ونهيه وكلماته : (اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ)، (وَلاَ تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ). (إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ . فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ) . (فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) .

فنحن ـــ إذن ـــ بإزاء آفاق متعددة اتصل بها آدم واتصلت به :

١ ـــ أفق الروح .

٢ ـــ أفق الجن .

٣ ـــ أفق الملائكة .

٤ ـــ وثمت أفق رابع لابد من النص عليه : وهو أفق المادة أو أفق الأرض التى خلق منها . وجعلت ميدانا لرسالته فى قوله سبحانه :

(إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً)

* * *

ولا نستطيع — ونحن بصدد تكوين الإنسان أو « تصميمه » إلا أن نقول إن آدم عليه السلام ما كان ليتصل بتلك الآفاق إلا لأن لها اتصالا مباشرا بمهمته التى أسندت إليه . . وأن الله سبحانه إذ قدر ـــ فى القديم ـــ أن يخلق آدم

لتلك المهمة الجليلة ، إنما قدوه — كما قلنا — على المثال الذى يتكافأ معها ، وقدر له من المواهب وآفاق المدارك ما يستطيع به أن يتصل بكل أفق من الآفاق المختلفة التى تتصل بمهمته العتيدة .

إن كلام الله سبحانه محكم الآيات ، مسدد الإشارات وما منه كلمة أو حرف إلا وقد فصله الله لمعناه ، وأراده منذ الأزل رمزا لما شاء من علم :

(كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)(١)

وإنا لنظلم أنفسنا أشد الظلم إذا مررنا بتلك الإشارات الدقيقة دون أن نقف لنتأمل ما وراءها من آفاق هذا الكون الواسع الرهيب !

هذه واحدة ، والأخرى التى يجب أن نقدرها قدرها ، فى هذا المقام أن الله سبحانه إذ يحيى ويميت ، أو يعطى ويمنع ، لا يفعل ذلك جزافا دون تقدير أو دراية لمواقع ما يفعل ، بل هى الإرادة الحكيمة التى لا يصدر عنها إلا كل تقدير دقيق وإحكام بالغ ، فتعطى بميزان ، وتخلق بقدر ، وتمنع لحكمة . وليس قدر من هذه الأقدار إلا وهو مصيب محله لا محالة : لا يزيد عنه ولا ينقص . ولا يجاوز موضعه . ولا يحيد عنه قيد شعرة .

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ .(٢)

فإذا كان الله سبحانه قد أراد للإنسان أن يكون خليفته فى هذه الأرض فإنه قد برأه وقدره على وفق ما تؤدى به هذه الخلافة أفضل أداء .

وإذا كان سبحانه قرن لنا فى قصة تكوين الإنسان بين خلافته فى هذه الأرض ، وبين الآفاق التى قدر له أن يتصل بها . فإن بين تلك الآفاق وتلك

---

(١) هود : ١ (٢) الرعد : ٨

الخلافة علاقة أوجبت ذكرها فى معرض « التصميم » الذى تعددت آفاقه . وتنوعت جوانبه . وأريد به للإنسان أن يواجه كل أفق بما يلائمه من الخصائص التى يصلح بها أمر الخلافة .

فليس فى مواهب المرء شىء يزيد مثقال ذرة أو ينقص عن مقتضيات الوفاء بحقوق تلك الخلافة ، فإذا هو أدى الذى عليه . ونهض بحق ما ألقى إليه ، وتعرض لكل أفق بحسبه . وأعطاه من نفسه كل حقه ، فقد أنصف نفسه . وكان عندما أراد الله له من كرامة ... وإذا أرادها مأكلة وشهوة وملهاة . أو اتصل بأفق دون سواه وعطل بعض مواهبه دون بعض . فقد أغلق من نوافذ نفسه . وغير خلق الله فيه . وانسلخ عما أراد له سبحانه من كرامة ... وإليك الكلام عن كل أفق من هذه الآفاق بما يتسع له المقام .

أفق الروح

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١)

استحالة معرفتنا لحقيقة الروح :

هل يستطيع أحد أن يصف لنا الصدق : مالونه ، وما طعمه ، وما هيئته ، وما حجمه ، وما وزنه ؟!. إن أحداً لا يستطيع أن يفعل ذلك ، لأن الصدق شيء لا لون له ولا طعم ، ولا وزن له ! ولا حجم ، ولا هيئة ، ولا تركيب !! ومع ذلك فإن أحداً لا يستطيع أن ينكر أن الصدق قوة فاعلة لها أثرها فى ظاهر الحياة ...

ولست أعنى أثرها الاجتماعى حين يتخذها الناس دستوراً لأقوالهم وأعمالهم إنما أعنى أثرها الخاص فى نفس صاحبها باعتبارها قوة دافعة تجتاز السدود وتحطم القيود ، وتهدر كل اعتبار يعترض سبيلها ، أو يتعارض مع غاياتها وأهدافها ، فكم رأينا الصدق يهدر اعتبار الصداقة والقرابة ويتخطى بصاحبه كل المواقع والعوائق المعنوية ليقول الحق ضد مصلحة صديقه أو ضد مصلحة ولده ، بل كم رأيناه يجتاز بصاحبه كل اعتبار للمصلحة الخاصة ليقول الحق على نفسه . وهو غير آسف على ما يفوته من نفع. ولا وجل مما يلحقه من أذى (٢) .

فالصدق — إذا — قوة كامنة فى النفس لها أثرها الواقعى ، وهو مثل نضربه للعوامل الروحية التى لها آثارها الملموسة فى الحياة دون أن ترى بالعين ، أو تلمس باليد ، أو تدرك بحاسة من الحواس . فإذا تقرر هذا سهل علينا أن ندرك شعاعا

---

(١) الاسراء : ٨٥

(٢) امل فى هـذا ما يناقض المذهب المادى الذى يقول : تصرفات المرء لا تتأثر إلا العوامل المادية القائمة على ما يجتنى لنفسه من نفع اقتصادى دون دخل لأى اعتبار روحى يناقض المصلحة الخاصة .

من أشعة معنى قوله سبحانه : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ... ولا أقول إن الروح كالصدق أو أن الصدق كالروح ، إنما أقول : إنهما يلتقيان فى أنه لكل منهما وجوده الواقعى الذى لا ينكر، دون أن يكون له مادة يتألف منها كيانه .

وقد نفخ الله سبحانه فينا سراً من روحه ، فكان الصدق والأمانة والشجاعة ونحوها ثمرة من ثماره ... ومحاولة الكشف عن حقيقة الروح ضرب من المستحيل ما دامت حواسنا العادية هى سبيلنا الوحيد لما تحصل عقولنا من علم ومعرفة ، فقد استأثر الله تعالى بعلمه ، وحجب تلك الحواس أن تدركه .. وإذاً ، ليس لنا من سبيل أو مصدر حق للحديث عنه إلا ما جاء بكتاب الله تعالى ، وما صح عن رسول الله ﷺ ، فإنا سنعول عليهما وحدهما فى الحديث عن تلك الهبة الروحية الجليلة ، وأثرها فى حياة الإنسان وصلته بالكون الذى يحيا فيه ببدنه وفكره . .

الروح وضرورته للخلافة :

ومن الملاحظ أن الله سبحانه لم يقل فى الملائكة أو الجن : إنه نفخ فيهم من روحه ، بل جعل ذلك خصوصية للإنسان وحده ، فلماذا أمده سبحانه بها ؟ .. هل وهبها له ليعبده بها ؟

إن العبادة ليست هى العلة التى أوجبت اختصاص الإنسان بتلك الخصوصية ؛ فالملائكة يعبدونه سبحانه دون حاجة إليها ، وكذلك الجن ؛ إنما تظهر العلة إذا لاحظنا — إلى جانب الملاحظة السابقة — أن الله جل شأنه لم يقل فى الجن ولا فى الملائكة إنه جاعلهم خلفاء فى الأرض ، بل خص الإنسان وحده بذلك ، فمن خلال الارتباط الوثيق بين خصوصية الروح وخصوصية الخلافة تنقدح العلة الصحيحة ، ويسوغ لنا أن نقول — بناء على ذلك — إن ذلك الروح هو « الملكة العليا » ، أو هو الجهاز الإلهى — ولله المثل الأعلى — الذى جهز به الإنسان ليحقق به الخصائص الروحية الأساسية لمقومات تلك الخلافة .

إن الخلافة ميدانها الأرض ، وهى خلافة عن الله سبحانه ؛ فلزم أن يكون للخليفة مواهب تناسب طبيعة العمل الأرضى البحت ، ومواهب أخرى ذات روح إلهى لا تمت إلى الأرض بصلة ولا تستفيد منطقها من الإدراك الحسى ، أو العلم بقوانين الطبيعة ، إنما هو ذو خصائص ذاتية ملكوتية لها سلطانها وفعلها فى الكون غير المادى الذى يصفه القرآن تارة بأنه «عند ربك» وتارة بأنه «عند الله» .

الانسان بين كيانه الحسى وكيانه المعنوى :

ولقد قلنا فيما سبق : إن ذلك الروح يحيا فى كيان الإنسان كائنا معنويا له حياة تخالف طبيعة حياة البدن .. فإذا ساغ لنا أن نقول : إن للرجل المؤمن كيانين : كيانا ماديا وهو البدن ، وكيانا معنويا هو الكائن الروحى ، وأن السر الذى يحيا به البدن غير السر الذى يحيا به الكائن الروحى . إذا ساغ ذلك ، فإن لنا أن نلتمس آثار الحياة ومظاهرها فى ذلك الكائن المعنوى ، كما نلتمسها فى الكائن المادى ، فإن للحياة فى كل شىء حلت به آثاراً ومظاهر ! !

ومن آثار الحياة فى البدن الحركة : أو القدرة على الحركة ، وإنجاز الأعمال ، فهو الذى يحرث الأرض ، ويتعهد الزرع ، ويطرق الحديد ، ويتصرف بجوارحه فيما لهذه الأرض من ثروات . فهل للكائن الروحى من أثر فى محيطه المعنوى يقابل أثر البدن فى محيطه المادى ؟ .. نعم له فى محيطه المعنوى آثاره الروحية الباهرة ؛ فالكرم ، والحب ، والتعاون على البر والتقوى ، ذلك وأمثاله هو حركات روحية تمثل انتقال النفس من صفات السلب إلى صفات الإيجاب . وهى إنما تكون حينما يقبل الإنسان على أسباب ازدهار حياته الباطنة .

هذا . ومن آثار الحياة فى البدن أن تهب له السمع والبصر وسائر الحواس ، وكذلك حياة هذا الكائن الروحى تهب له سمعا وبصراً — على ما ورد فى القرآن الكريم — ولكنه سمع آخر . وبصر على غير ما يعهد الناس من أبصار ...

فالسمع فى البدن آلته الأذن : والبصر آلته العين . أما السمع والبصر الآخران فمركزهما جميعاً القلب . ولا آلة لهما ... والسمع والبصر الظاهران يتعلقان بإدراك الصورة الظاهرة من كل شيء أو كل صوت ؛ أما السمع الروحى والبصر القلبى فمن الحواس الباطنة التى تتعلق بإدراك العبرة فى كل قول تسمعه . وفى كل شيء تراه . والعبرة رحيق يحيى النفوس . ويلين القلوب . لأنه آية الله فى كل شيء . ولله فى كل شيء آية لا تدرك إلا بتلك الحواس ...

فإذا لم يكن البدن يسمع أو يبصر فهو إما ميت . وإما أصم أو أعمى .. وكذلك هذا الكائن الروحى قد يعتريه الصمم أو العمى ، إما لآفة أدركته ، أو لموت حل به ؛ وفى أمثال هؤلاء جاء قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً . وَإِنْ يَرَوا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾[1]. ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾[2].

وقد اعتبر الله سبحانه — وهو الاعتبار الحق — أن هذا الكائن المعنوى هو كل شيء فى الإنسان ، وأن نظر هذا الكائن هو النظر الحق ؛ فإذا أصابته آفة واحتجب عن نور العبرة فهو أعمى ، وإن ينفعه حينئذ أن يكون بصره العادى أقوى الأبصار جميعاً : ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ ، وَلَٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ[3] ﴾ .. وكذلك سمع هذا الكائن هو السمع الحق ؛ أما الأذن الأخرى التى ترى أمثالها مركباً على رأس كل دابة ، فلا اعتبار لها فى تدبر الهدى ، وقد أسقطها الله سبحانه من حساب هذا الباب ، ولم يحدث لها ذكراً فيه ، كأنها شيء غير موجود ، وإنك لتقرأ ماجاء فى كلامه عن الهدى ، فلا ترى

(١) الأنعام : ٢٥ (٢) الأعراف : ١٩٨ (٣) — الحج : ٤٦

السمع إلا سمع القلب وحده ، ولا ترى الحياة إلا حياة هذا الكائن المعنوى ، وبدونها فلا سمع للمرء ولا حياة ولا استجابة لما حوله من معالم الحق: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ . وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (١) ﴾ .

* * *

بين العقل الطبيعى والعقل الروحى :

وللإنسان منطق قائم على ما بينه وبين هذا الكون المادى من علاقات حسية ومشاهدات وتجارب ، أو قل إن للإنسان قوة مدركة فيها سر التجاوب والتوافق مع الأشياء الماثلة لحواسنا فى هذا الكون ، فنحن نرى شخوصها ، ونسمع أصواتها ، ونشم روائحها ، ونذوق طعومها ، ونميز ملمسها ، وتقوم تلك القوة المدركة تبعا لتوالى الزمن ومرور التجارب — بإدراك خواص تلك المسموعات والمرئيات والمشمومات والمطعومات والملموسات ، وعلاقة بعضها ببعض ، وعلى أساس ذلك كله تقوم بتقسيمه أجناسا — جمادا ، وحيوانا . ونباتا — وتقسيم الأجناس أنواعا ، فينقسم الجماد — مثلا — إلى صلب، وسائل • وغاز .. وهلم جرا .: وخلال ذلك يتبين من قوانين الطبيعة ، وخواص الأشياء الكيموية وحقائقها الرياضية والهندسية ما تقوم به المدارس والجامعات الآن فى بلاد الدنيا .

أقول للإنسان قوة مدركة يقع إدراكها على أشياء هذا الكون المادى ، وله مع ذلك خاصية عقلية أخرى تنظر إلى الطبيعة نفسها لا من حيث أنواعها وخواصها وألوانها ، إنما من حيث أنها . . صنع الله تعالى ، وهذا الصنع يدل بما فيه من آيات الإتقان وإحكام النظام وعجائب الخلق وقصد الإحسان والإنعام على ما للصانع تعالى من صفات القدرة والعلم والحكمة والكرم والود والرحمة إلى ماله من صفات . .

---

(١) — الأنعام : ٣٦

وحصيلة هذا التأمل والاستبصار تتنزل فى ضمير الإنسان فتلتقى بالروح العلوى فيه، فإذا به يتلقاها تلقى الأرض الطيبة لواردات الغيث المبارك، فتثمر ما شاء الله من مبادىء وقيم وصفات . . أى تنشأ بذلك للإنسان حياة باطنة، فى مقابل حياة بدنه، غير أن حياة البدن تقوم بزاد من الحس تحيا بها أعضاء فانية، أما تلك الحياة فإن زادها من معرفة الله عز وجل . ولا يدركها فناء . .

وقيام تلك الحياة فى ضميرا لإنسان يقترن — ولابد — بوجدان قوى أصيل جامع، يحب قيم الحق والخير ويراها بهجة نفسه، ويكره الباطل والشر وكل ما يمت إليهما بصلة على ما فى قوله تعالى : «وَلَـكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْـكُمُ الإِيمَانَ وزَيَّنَـه فِى قُلُوبِـكُمْ ، وَكَرَّهَ إِلَيْـكُمُ الْـكُفْرَ وَالْفُسُوقَ والْعِصْيَانَ أُولَـئِك هُمُ الرَّاشِدُونَ »(١) . .

وقد قلنا إن هذا الوجدان يقترن بتلك الحياة الباطنة — ولا بد — فلا توجد بدونه إطلاقا، ولا يوجد هو بدونها، فهما متلازمان، ولك أن تقول إنهما شىء واحد . ولهذا نجد صاحب هذه لا يطيق أن يستعلن الباطل، ولا أن تنتهك للحق حرمة، وهذا الوجدان بالنسبة لتلك الحياة الباطنة هو عقلها الروحى .

ولهذه الحياةالروحية قيمها . كما أن للحياة الحسية قيمها من عرض الدنيا وزينتها وجاهها... قيمها : الحق. والرحمة . والطمأنينة. والعزة، والعدل، والود، والأمن والصبر والنصر، والخير، والغنى، والسكينة، والبر والفوز والعلو، والربح والبركة والحياة، والإيمان، والهدى والمعروف.. إن هذه القيم التى ذكرنا والتى لم نذكر، هى قيم معنوية بحتة، أخذنا أسماءها كما وردت فى القرآن الـكريم . ولها فى حياة عظماء الرجال ومصلحى التاريخ أثرها الواقعى المسلم...

---

(١) — الحجرات : ٧

والذى يهمنا من تقرير ذلك هو صلته « بالعقل الروحى » :

(١) فى العقل « خاصية روحية » لا تبصر من الكائنات جرما ولا لونا ، ولا طولا ولا عرضا ، إنما تبصر ما لله فيها من عبر الصنع وعجائبه . فيستخلص الإنسان بتلك حصيلة من معرفة الله عز وجل .. فالخاصية بهذا ليست من قبيل ملكات الإدراك الحسى ، فهى روحية .. وحصيلتها ليست من مقررات العلم الطبيعى ، إذ هى من خالص العلم بالله .. والميدان الذى حصلت منه تلك محصولها من العلم ليس هو المادة ، إنما هو « دلالة المادة على الخالق عز وجل . . وهذه « الدلالة » أفق روحى امتاز الإنسان من دون الحيوان بأن له فيه جولات وصولات .

(ب) وقد قلنا إن حصيلة المعرفة تنشأ بها فى ضمير الإنسان « حياة روحية » .. وهذه الحياة ذات وجدان قوى لا ينفك عنها بحال : يحب الإيمان . ويكره الكفر وهذا الوجدان بالنسبة لتلك الحياة هو عقلها .. إذ به يعرف الإنسان غايته العليا التى يجب أن تتعلق بها همته . وأن تنعقد بها جهوده . فلا يرى باطلا إلا جرد نفسه لمجاهدته . ولا يرى حقاً الاجرد نفسه لدعمه وتأييده .. وبه يدرك أن حقيقة الثروة هى حظه من معرفة الله ، وأن كل الدنيا إلى جنب ذلك قليل .. وأن الخير هو أن يؤتى الإنسان حظه من معرفة الله . وأن الشر هو أن يحرم تلك المعرفة . . وأن الغنى والفقر ، والعزة والذلة ، والنصر والخذلان ، إنما ترجع كلها إلى جوهر تلك الحقيقة : «مدى حظ المرء من معرفة الله » ..

وإذا كان الإدراك الحسى هو الحاكم على تقدير قيم الحس وتنظيمها . فإن هذا العقل الروحى الوجدانى هو الحاكم على تلك القيم العليا . فهو مناط الحياة الطيبة ومتن تبعاتها وتكاليفها .. وليس يقتضينا المقام أكثر من ذلك ، فلنذكر أن الخاصية الروحية فى العقل شأنها شأن الرائد الذى يرتاد أفق الدلالات ليستخلص ويستنزل منه ماشاء الله من العبر والمعرفة .. وأن تلك المعارف إذ تلتقى بروح الله

فى الإنسان ينشأ عنها الحياة ذات العقل الوجدانى على ما قدمنا .. ولنذكر أخيراً أن الإنسان إذا فرط فى معرفة الله انطفأ فى ضميره وجدان هذا العقل الروحى ، فلا قيم ولا مبادىء ، ولكن صيحات المعدة ، ونداء الشهوة ، وشتان بين من يتولى قيادته رشد مبادئه ، ومن يتولاه منطق أهوائه .

بين العلم الطبيعى ، والعلم الروحى .

هذا ، والعقل الطبيعى يكسب علمه وأحكامه عن طريق الحواس المتصلة بعالم الطبيعة . ولولا تلك الحواس لظلت خزائنه خالية من المعارف والتجارب .. أما العقل الروحى فقد عرف أنه يبدأ كسب معارفه العلوية بالتفكير فى أفق الدلالات بواسطة الخاصية العقلية التى قدمنا .. وبذلك يبدو لنا لون من الموازنة بين كلا العلمين .

فالعلم الطبيعى آلى يضع مقرراته بين يديك لتعمل منه وتصنع ما شئت ، دون أن يحدد لك الغرض الذى ينبغى أن يستعمل فيه الذى لا ينبغى ، فإن صنعت به خيرا لا يحمدك ، وإن صنعت به شرا لا يزجرك . هو يعلمك : كيف تصنع! ولا يعلمك لماذا تصنع ؟ .. هو علم آلة كما قلنا ، وليس علم قيم ومبادىء وصفات وغايات .. أما العلم الروحى فليس بحاجة إلى بيان خصائصه ، إذ هى واضحة فى كل ما قدمنا . . ذلك والعلم الطبيعى منطق بحت خال من العاطفة ، لأن أحكامه ، قائمة على ملاحظة ظواهر الماديات البحتة .. أما العلم الآخر — فأحكامه قائمة على تبين وجوه العجب والحكمة فى آيات الخلق ، وهى ملاحظة يمتزج فيها المنطق بانفعال الوجدان بروعة مايرى . . ففيه من المنطق تمييزه بين الحق والباطل . . والخير والشر . . والحلال والحرام .. وفيه من الوجدان حبه للحق والغيرة على حرمته ، وبغضه للباطل والنزوع إلى مناوأته ، فإذا خلا العلم الروحى من خاصية الوجدان ، فهو علم زائف تنقصه الروح . ويفقد حوافز الإيجاب والعمل ، كعلم جهزة المتفقين الذين يقولون مالا يفعلون ، وليس ذلك فى حسابنا ، بل إنه لا يعتبر علما على الإطلاق .

ولما كان العلم الطبيعي علم إمكانات وطاقات رهيبة ، فإنه إذا كان في وصاية العلم الروحي كان في وصاية الحكمة والقيم الراشدة ، فلا يستعمل إلا في غايات الحق ، ومقاصد الخير ، أما إذا كان في وصاية الأهواء والشهوات ، فليس إلا الجحيم الذي لا تنتهي كوارثه عند حد دون الإبادة .

بين المجال الحسي ، والمجال الروحي :

وإذا كان لكل إنسان وجودان : وجود حسي ، ووجود روحي ، فله ـ على هذا ــ مجالان يسعى فيهما بمواهبه : مجال حسي يسعى فيه بجوارحه ، ومواهب عقله الطبيعي ؛ هو عالم الطبيعة .. ومجال روحي ، يسعى فيه بمواهب عقله الروحي .. هو أفق ماوراء الطبيعة : أفق الدلالة الروحية على صفات الخالق سبحانه .

ولقد تكلمنا بعض الشيء عن وجودنا الروحي وماله من مواهب وملكات ، وعن وجودنا المادي وماله من مواهب وملكات ؛ وتبين أنه لا سبيل إلى إدراك الوجود الأول بالحواس العادية كما يدرك الوجود الآخر ، فذلك غير هذا .. وكذلك شأننا إذا رحنا نقابل بين المجال الذي يسعى فيه الوجود المادي ، والمجال الذي يسعى فيه الوجود الروحي .

فالمجال الأول مقيس بأقيسة الزمان والمكان ، مضبوط بالشواهد التي تحصي آفاقه . وتميز معالمه ، والسعي فيه مقدور بخطوات الأرجل ، وحركات الأيدي ، وما ينطق اللسان من كلمة .

أما المجال الآخر فليس له ضوابط من زمان أو مكان ؛ فالصدق الذي كنا نتكلم عنه ــ مثلا ــ لا يسوغ في الذهن أن نقسمه إلى أربع وعشرين ساعة ، ولا إلى ليل ونهار ولا إلى شروق وغروب ، ولا أن نقول : إن فلانا قطع اليوم ثلاثة فراسخ من الصدق ، وفلانا قطع أربعة . وكذلك عالمنا هذا الروحي لا زمان فيه ولا مكان ، ولا يصح تصور هيئة له أو شارة من شارات أفقنا هذا الحسي بحال .

والسعي فيه مقدور بإشراقة الرغبة إلى الله ، تومض فى القلب لا بحركة يحدثها اللسان أو القدم أو اليد : « وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ »

ولا أحسب إنسانا غير ملحد إلا وقد جرب هذه الإشراقة التى يلتفت فيها القلب بإخلاص إلى الله ، فى لحظة من لحظات الصفاء ، يعلن بها إلى مولاه من غير صوت ولا حرف — أنه محتاج إلى فضله ، مفتقر إلى رحمته .. تلك الإشراقة التى تحدث بالقلب فإذا هو هين لين منكسر لله ، ليست زمانا ولا مكانا ولا حركة ، إنما هى سر خفى يمثل طرفا من سعى الإنسان فى مجاله الروحى .

سر ليس له إشراق المصابيح ، وإن كان نور حقيقته أبهر من وضح الشمس . . وليس له خطو يقطع به المسافات ، وإن كان يطوى ما بين الأرض والسماء فى أقل من لمح البصر .. وليس له بيان مسموع وإن كان له حنين حول عرش الله يفاخر الله به الملائكة . . . وليس له يد يسخر بها ما يريد ، وإن كان يقبض على سنن الله فإذا هى أطوع له من البنان ، وأقرب إليه بالإجابة من كل ما تحتويه اليد . ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (١)

« وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ » (٢)

بهذا السر يسعى الإنسان فى السماء ، أو فيما وراء الطبيعة لتحصيل ماله عند الله من رزق ..

أرزاقنا بين المجال الحسى والروحى

وإذا كان لكل منا وجودان : روحى ، وحسى فلابد لكل منهما من رزق يناسبه يقوم به شأنه ، للحسى زاد الحس وللروحى زاده الروحى .

---

(١) غافر : ٦٠ (٢) البقرة : ١٨٦

ومن البديهي أن زاد الوجود الحسي هو ما قدر الله تعالى لنا من أقوات هذه الأرض .. أما الوجود الروحي فزاده ورزقه هو معرفة الله عز وجل — على ماقدمنا والله تعالى يقول : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ المَثَانِي وَالقُرآنَ العَظِيم . لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنهُمْ ﴾[1] ومن هذه الأرزاق ما يقبل الله به على المؤمنين من الولاية والتأييد ، على ما يقول تعالى : ﴿ هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا ﴾ [2] ومن أهم تلك الأرزاق زاد التقوى على ما يقول تعالى ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقوى ، واتقونِ يا أولي الألبابِ ﴾ [3]

والله سبحانه يرزقنا في عالمنا هذا الحسي وفق سنن من الأسباب والمسببات ، والمقدمات والنتائج ، ووفق قوانين من طبيعة التربة والجو والماء . . ألخ ، فالمعادن تتكون في الأرض وفق قوانين معلومة وموازين دقيقة ، ولا تتكون كيفما اتفق .. وشجرة التفاح والبرتقال — مثلا — لا تنتج كل منهما ثمرها جزافا ، إنما يتم ذلك وفق قانون محكم يستصفي لشجرة التفاح من عناصر الأرض الغذائية قيما مختلفة ، ونسبا مقدرة بميزان دقيق من كل عنصر ، ويستصفي لشجرة البرتقال قيما أخرى ونسبا تخالف النسب التي تخيرها للتفاح ، ولا تملك شجرة التفاح أو شجرة البرتقال أن تمتص من كل عنصر غير النسبة المقدرة لتكوين ثمرتها ، فتخرج شجرة التفاح تفاحا بحساب وميزان ، وتخرج شجرة البرتقال برتقالا بحساب وميزان ، وإليه الإشارة بقوله سبحانه : ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾[4].

هذا شأنه سبحانه حين يرزقنا من عالمنا هذا الحسي ، أما شأنه حين يرزقنا

---

(١) الحجر : ٨٧ ، ٨٨ (٢) الكهف : ٤٤ (٣) البقرة : ١٩٧
(٤) الحجر : ١٩

من الأفق الأعلى فغير هذا . . شأنه هناك أن يخلق بلا سبب ، ويبدع بلا مقدمات إذ هو سبحانه سبب كل شيء ، وإرادته هي علة الخلق والأمر على نحو مابيَّن سبحانه ذلك بقوله : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَه كُن فيكون ﴾[1]

فإذا كان لأحدنا سعى فى هذا الأفق الأعلى حصل له من الأرزاق مالا دخل لقانون الأسباب والمسببات ، ولا منطق الأرقام والحساب فى تثميره وضبطه ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[2].

ولقد كان الله سبحانه يرزق مريم ابنة عمران فاكهة الشتاء فى الصيف وفاكهة الصيف فى الشتاء . فسألها زكريا عليه السلام: ﴿ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَٰذَا ؟ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[2] .

هذا حين يرزقنا الله من هذا الأفق الأعلى — رزقاً «حسيا» أما حين يرزقنا سبحانه منه رزقاً روحياً ، فشأنه هو هُو .. إذ هى مواهب لا تقاس بمقياس ، ولا توزن بميزان ، ولا تحصى بعدد ، ولا تتألف من ذرات ، ولا يسمو إليها وصف الواصف

هى أرزاق عظيمة الشأن لو ساومهم العارفون على لمحة منها بملء الأرض ذهباً لرفضوا أن يبيعوا الغنم بالخسران ، والجدة بالحرمان ، والعلو بالضعة ، ومجد الخلود بالوكس البائر ... هى الإيمان بالله ، والاهتداء بهديه ، والمعرفة بقدره ، والخشية لمقامه والحب لذاته ... وهى النصر على العدو ، والتأييد فى مواقف المعارضة ، والسكينة فى مواطن الروع ، والجنود التى لا تراها العيون ولا يعلمها إلا الله . . وهى الفرقان الذى يفرق به بين الحق والباطل ، والرشد الذى تدرك به حقائق الأشياء .. وهى الصبر ، والثبات والثقة ، والطمأنينة ، والشجاعة والصدق ،

---

(١) النحل : ٤٠ (٢) آل عمران : ٣٧

والوفاء ، والأمانة ، والكرم ، والسماحة ، والمواساة ، والإيثار وكل ما عرف من فضائل تنضر وجه الحياة .

هي ما شئت من حياة الأبد ، ونعيم غير محصور بأمد ، ومطالب جلت عن الأسباب لقيامها بدون سبب .

فلك إن شئت : عــــلم بغير معلم
وأنس بغـير أهل
وعز بغـير عشيرة
وجاه بغـير منصب
وقوة بغـير جنـد
وسلطان بغـير دولة
وغنى بغـير مـــال
وزينة بغـير رياش
وشبع بغـير طعام
وري بغير شراب

وكان رسول الله « ﷺ » يقول : « إني لست كهيئة أحدكم ، إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني » ذلك بعض مايقال عما لنا عند الله من رزق معنوى ، وهو الرزق الحق الذى لا يقارن به ولا يذكر إلى جانبه رزق آخر ، إذ النعمة به لا يقدر قدرها ، ولا يحصى مداها ، ففي بعض مواطن الكتاب العزيز يذكر الله سبحانه رزق الأرض إلى رزق السماء حين يريد أن يفتح آفاق المحجوبين إلى ما ينزل عليهم من السماء من مطر ، ولكنه سبحانه حين أراد أن يبين أن الرزق الحق فى السماء لا فى الأرض قال : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾

وأقسم لهم على ذلك فقال : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾(١)

مفاتيح السماء:

لقد خبأ الله لنا هذه الأرزاق فيما وراء المادة ، وجعلها فى الأفق الأعلى — أفق العندية الإلهية — لمن يريد من عباده ، ولا قيمة لهذه الحياة الدنيا إذا لم تنزل إليها تلك الأرزاق من مستواها الرفيع ، ... ولا أنكد لعيش المرء ، ولا أبخس لقدره من أن يعيش فى محيطه الجدب محجوبا بعرضه الأدنى عما فوقه من رزق حق ، وفضل واسع ، وخير عميم .

وإذ قدر الله سبحانه أن تكون لنا حياة فى هذه الأرض استودعنا المفاتيح التى تفتح بها خزائن تلك الآفاق العلا ، حتى تكون الأرض كأنها سماء فى نعيمها وهداها ، أو كأن السماء هبطت إلى الأرض لكثرة ما يفاض على المرء من نور ورخاء وبهجة ... تلك المفاتيح هى تقوى الله سبحانه وتعالى !! ....

نعم هى تقوى الله ، ولا شىء غير تقوى الله .

ولقد قدمنا أن هنالك إشراقة فى القلب تطوى للإنسان ما بين الأرض والسماء وتجعل سنن الله أقرب إليه بالإجابة مما فى يده ... تلك الإشراقه سمها ما شئت ، وقد سميناها سراً ، لأن أحوال القلوب المؤمنة سر من أمر الله ، لا يجمعه اللفظ ، ولا يحيط به الوصف ، وقد سماها سبحانه فى مقامنا هذا « تقوى » فلنكن عندما سمى الله !

فتقوى الله لا يقتصر أثرها على تصحيح الأعمال ، وسلوك الصراط السوى ، والنجاة من سوء العاقبة ، بل يمتد ذلك الأثر إلى استفتاح ما عند الله من أرزاق طيبة مباركة ، وهو عز شأنه الذى يقول : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . . (٢) ﴾ ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ

---

(١) الذاريات ٢٣ (٢) الأعراف : ٩٦

يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ، وَيرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبْ .. ﴾ (١)

والقد قدمنا أن مريم ابنة عمران كانت ترزق من طيب الطعام وتقول إنه من عند الله ... وإنما كان ذلك بسر التقوى الذى رشح له الله سبحانه بقوله : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً ﴾ ، والذى نلمحه فى قرينة المحراب الذى كان بيت نسكها ومهبط رزقها فى قوله سبحانه : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً ﴾ ، ولقد كان عيسى بالمكان المرموق من تقوى الله عزوجل ، يسأله الحواريون أن ينزل الله عليهم مائدة من السماء ، وقالوا فى تسويغ هذا الطلب : ﴿ نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا ، وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ، وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا ، وَنَكُونَ عَلَيْهَا من الشَّاهِدِينَ ﴾ (٢) فدعا عيسى ربه فنزلت المائدة .

والآيات التى تدل على أن تقوى الله مفتاح الأرزاق التى تتنزل علينا بغير سنة ولا قانون كثيرة فى القرآن الكريم ، فارجع إليها إن شئت ، فإنما نحن فى مقام الاستشهاد لا فى مقام الاستيعاب ، وحسبنا شاهداً — إلى ما قدمنا من شواهد — قوله عز وجل على لسان نوح عليه السلام : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَاراً ﴾ (٣) ، فالمطر الذى ينزله الله بسنة وقانون ومقدمات معروفة يمكن أن يستنزله المتقون حين يضرعون إلى الله مستغفرين لما فرط من ذنوبهم ... فمن كان يرى أن استغفاره لا يسعفه بما وعد الله فليعلم أن قلبه يفقد شرط التقوى ، وهى السر الذى يصنع به القلب ما شاء الله ، ويصعد به الاستغفار إلى ملكوت السماء : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٤) ﴾ ، ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ﴾ (٥)

---

(١) الطلاق : ٢،٣ (٢) المائدة . ١١٣ (٣) نوح : ١٠ ، ١١
(٤) المائدة : ٢٧ (٥) الحج : ٣٧

ذلك شأن التقوى فى استفتح خزائن الرزق الحسى ، وكذلك هو شأنها فى استفتاح خزائن الرزق الروحى ، فإذا طلبت العلم والهدى فقد أوجبهما سبحانه على نفسه لمن اتقاه وآمن به: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا(١)﴾ ، ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ(٢)﴾ ... وإذا أردت الميسرة مدت لك التقوى أسبابها فى الأمر كله : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ(٣)﴾، ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا(٤)﴾ . وإذا شكوت رجس الشيطان يرين على القلب ، فتقوى الله تكفل لك صقا لا يعيد جلوته ، ويبعث ضياءه الحبيس : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ(٥)﴾ .. وإذا أردت معية ترعاك ببأسها فلا ترام ، وتظلك بعزها فلا تذل ، وتؤنسك بودها فلا تستوحش ، وتفوز معها بالمثوبة فى كل عاقبة ، فتقوى الله سبحانه مفتاح ذلك كله : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ(٦)﴾ .. ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٧) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ(٨)﴾ .

ذلك بعض ما لنا فى تلك الأسواق العليا من بر ، ورزق ، وعطاء الهدى .

تقوى الله والأخذ بالاسباب :

وهذا الذى قلناه عن تقوى الله سبحانه لا يتعارض مع الأخذ بالأسباب ، ولا يوم أنا ندعو إلى ترك العمل وإهمال العدة ، ونبذ ما جعل لنا الله فى هذه

---

(١) الأنفال :٢٩ — (٢) التغابن : ١١ — (٣) الليل : ٥ ، ٦ ، ٧

(٤) الطلاق : ٤ — (٥) الأعراف ٢٠١ — (٦) النحل : ١٢٨

(٧) الاعراف:١٢٨ — (٨) البقرة : ١٠٣

الأرض من ثروة ، فتقوى الله سبحانه إن هى إلا سبب يسعى به الإنسان فى مجاله الروحى ، كما يسعى بسائر أسبابه الحسية فى مجاله المادى فإذا أخذ بتقوى الله وترك الأسباب الحسية فهو جاهل معطل لوجوده الواقعى . وإذا أخذ بالأسباب الحسية وترك تقوى الله فهو فاجر معطل لأسمى أسبابه وأقواها . . وسنة الله التى رسمها لعباده هى أن يبذلوا الطاقة الروحية والحسية جميعا ، إذ الروحية وحدها ليست بمغنية والحسية وحدها ليست بكافية ، وقدجاء القرآن الكريم بهما جميعا ، فقال سبحانه عن الطاقة الروحية : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾(١) وقال عن الطاقة الحسية : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾(٢) .

ذلك من حيث وجوب الأخذ بهما ونظر الشرع اليهما ، فاذا وازنت بينهما فى ضوء القرآن وما قصه من حقائق واقعية وجدت سراً عجيبا وفرقا كبيرا يتمثل فى أمور كثيرة ، نذكر منها ما يأتى :

الأولى : أن الأسباب الحسية وحدها ، يقتصر أثرها على المجال الحسى وحده ولا نصيب لذويها من ثمار المجال الروحى ، والله سبحانه يقول : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ، وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾(٣) ، ذلك أنهم إنما يعملون فى أفق لا تخرج فيه الثروات إلا بسنن وقوانين مقدرة ، فمن عرف تلك القوانين وعالجها بما يطلق طاقتها ويضاعف جهدها كان له فيها بمثل ما بذل . . وعلى هذا تتفاوت حظوظ الأفراد والأمم منها — كثرة أو قلة — بتفاوت ما يعلمون من تلك السنن وما يحسنون من ممارستها .

---

(١) التغابن : ١٦ (٢) الأنفال : ٦٠ (٣) هود : ١٥

فإذا قلنا : إن الأسباب الحسية وحدها يقتصر أثرها على المجال الحسي وحده فذلك ما نريد ، لكي نقابله بأن الأسباب الروحية يمتد أثرها إلى المجالين الحسي والروحي جميعا ، فلا يقف أثر الأسباب الروحية — تقوى الله وحسن معرفته والرغبة اليه تعالى — عند توفير الأرزاق الروحية التي أسلفنا ، إنما يمتد إلى الهيمنة على « قوانين الطبيعة » نفسها ، فيسخرها على وفق مشيئة ذويه ، وقد قدمنا في تقرير ذلك آية الاستغفار . . ويمتد أيضا إلى « أقوات الطبيعة » وثمارها، فيهب لها أمراً عجيبا لا ندري له كنها إلا أن الله سماه: « البركة » وقرره بمثل قوله. (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ، وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ، ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا ، وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ)(١) .. فنحن أمام حقيقتين في هذا النص الكريم : الحقيقة الأولى : « تقدير الأقوات» وهو قانون معروف . . والحقيقة الثانية : « البركة » وهي حقيقة غيبية ليس لها قوام مادي. قررها القرآن ، وقرر آثارها، وشهد المؤمنون في كل جيل تلك الآثار في حياتهم .

ونحن نعلم أن الحقائق المعنوية يصعب تصورها لأننا اعتدنا ألا نتفاعل إلا مع حقائق الحس ، ووقع في أذهان الكثيرين أن ليس في الكون من حقائق إلا المحسات . وهذا خطأ لسنا بإزاء مناقشته ، ويكفي أن نعلم أن المادة التي بين أيدينا ليست سوى طاقة مقيدة أو محبوسة في قوانين ، وأن وراء عالم القيود والحبوس أو عالم القوانين المحسوبة عالما طلقا من كل ما للقيود والحبوس من عقد الأرقام والمعادلات . . . وليس كل ملك الله هو تلك العناصر التي تتركب منها أجرام

(١) فصلت : ٩ ، ١٠

هذا السكون ؛ ومن غرور الإنسان وجحوده الحقيقة أن يحجر على المدارك الإنسانية الحسية والعلوية أن تقرر السكون مفهومه الروحى اللانهائى . . . والعلم نفسه يقرر أن المادة المضبوطة فى قوانين الأرقام والمعادلات تتأثر بغيرها ، ولا تؤثر فى غيرها . . على أن ذلك كله إنما يرجع إلى الله المحيط بكل شىء ، الآخذ بزمام كل شىء . . . ومن كرامتنا على أنفسنا أن نحيا فى حقائق الإيمان التى لا نفقد بها ذرة من حقائق العلم الطبيعى ، ونذوق بها خيرات ما عند الله : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ ، وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ ﴾ .. والبركة إحدى حقائق «العندية الإلهية» فإذا قلت إنها تضاعف حاصل الأرض من الثمر فهو حق .. وإذا قلت إنها تجعل الثمار نفسها مباركة فلا تعطب ، ولا تسرع بالنفاد على كثرة المطالب فهو حق .. وإذا قلت إنها تجعلها مباركة الأثر فيما أنفقت فيه فهو حق .. ويبقى بعد ذلك أن من معانى البركة : القداسة ، والنمو ، والبقاء ، وهى حقائق يقصر العقل عن تبينها ، ولكنها بدون شك عوامل ذات أثر واقع مسلم فيما يكون للأفراد والأمم من قداسة الوجهة ، وعلو الشأن وبقاء المجد والأثر .

فإذا قلنا : إن العوامل الروحية تعمل فى المجال الروحى ، وتعمل أيضا فى المجال الحسى فذلك ما نعنيه ، وهو — مع الأسف — أمر معطل بيننا الآن ، لتعويل الناس على منطق الحس وتركهم الأخذ بأسباب ما عند الله .

والثانى من تلك الفروق ، أن الإنسان مع الأخذ بأسباب التقوى يكون قريبا من الله ، موصول السبب به سبحانه ، فيكون عونه جل شأنه متحققا له ، ويكون ما يملك هو من إمكانات حسية مجرد مظهر أو أداة لما يجرى الله من تأييد .. أما إذا كانت أسبابه إلى الله منقطعة ، وليس له من حول فى الحياة إلا ما يملك من أسباب مادية — كالمال والعدد والعدة — فهو معزول عن المصدر الحق للعون والتأييد ، ذلك أن مصدر الإيجاب فى السكون كله : حسه وروحه — هو الله ،

وأن الإمكانات فى يد الإنسان مجرد شكل، وليست من الإيجاب فى شىء، بل إن الإنسان نفسه ليس سوى كتلة من المادة لا غناء لها، أى ليس مصدرا للروح العلوى الذى يأتى بالمجب ويقهر الصعاب، ويسترخص البذل والتضحية، ويرى الموت فى سبيل الله حقيقة الحياة، إنما هو — فى مجال الأسباب — سيبقى فى يد الله على ما يقول تعالى: ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ فاذا كان موصول القلب بالله، فهو موصول بالمصدر الحق للعون والتأييد والعطاء، وإلا فهو مبطل ساع فى هباء.

الثالث: أن تقوى الله تجبر التصور — لا التقصير — فى الأسباب الحسية، فقد يحدث أن يقصر جهد أهل التقوى عن أن يكون لهم مثل ما لعدوهم من المال أو السلاح أو العدد لسبب خارج عن إرادتهم فتتولى التقوى بإذن الله الوفاء، بما قصرت عنه طاقة المقل، ووسع العاجز. ذلك أن السر الحقيقى ليس فى الأسباب — كما قدمنا — إنما هو من الله خالقها وميسرها لمن يشاء، وسر الله فى القليل هو سره فى الكثير، لا يزيد ولا ينقص ... فإذا رؤى العبد مفرطا فى جنب الله محقت بركة ما لديه.. أما إذا رؤى ناهضا بحقه سبحانه ساعيا فى أمره، مقيما لسنة بذل الوسع والطاقة، نهض سر الله فغطى ما قصر عنه الجهد، وفعل بالأسباب القليلة ما يندحر دونه جهد الكثير .. واقرأ — إن شئت — قوله سبحانه: ﴿ إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ، إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ، إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴾[1] قد قصرت أسباب

---

(١) التوبة: ٤٠

العدد والعدة لديه عليه السلام يومئذ ، فلم يكن لديه من العدد إلا واحد ، « ثانى اثنين » ولم يكن ذلك عن تقصير منه عليه السلام ، إنما هو حكم الظروف فى منطق تسلسل الأحداث ، ولذا جبر الله القصور فأعلى إرادة نبيه على إرادة أعدائه، فأنفذ هجرته (وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا) .

بل قد يستنفد أهل التقوى جهدهم الحسى فيما هم فيه من أمر الله ، فلا يبقى لديهم من الأسباب المادية قليل ولا كثير ، فتنهض لهم تقواهم بما كانوا يرجون أن تنهض به الأسباب ، بل بأكثر مما كان يدور بخلدهم من ذلك ، وهاهم أولاء فتية الكهف كانوا يدعون إلى الله جهدهم ويرجون أن تقوم للتوحيد دولة فى مملكتهم ، فلما ضيق عليهم الطغيان واضطهدهم ، وصب عليهم عذابه ، لم يجدوا فى أيديهم من إمكانات الدعوة إلا أن يعتزلوا قومهم ، ويخرجوا من المدينة إلى كهف عتيد يمارسون فيه ما تنبض به قلوبهم من شعائر توحيد الله عز وجل — ويقص الله سبحانه هذا الجانب من نبئهم بقوله الذى يحكيه عنهم : (وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ — فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِن رَحْمَتِهِ) . .(١) فهم يأوون إلى الكهف لا لكى ينجوا بحياتهم ، ولا ليحرزوا أنفسهم من أذى عدوهم ، فالآية لا تقول هذا ، وإنما أووا إليه لأنهم حملة دعوة لا يمثلها فى البلاد سواهم ، والعمل لنشر رحمتها بين الناس واجب عليهم ، فاذا سلبهم عدوهم إمكانات هذا العمل حسيا ، فهم يدركون سر الإيمان حينما لا يبقى فى وسع الإنسان سوى خفقة بالقلب ، فتنادوا : أن أووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم ما تريدون من رحمة بين الناس . . .

وانظر إلى فقههم الجميل فى الأسباب كيف رأوا أن الانطواء يثمر لهم الانتشار:

---

(١) الكهف : ١٦

فانطواؤهم فى الكهف حينما لم يجدوا سواه يثمر لهم انتشار ما يدعون اليه ، وقد صدقهم الله وعده ، فبارك لهم هذا العمل السلبي — فى نظرنا — وجعل له من البركة والثمر مالا نظن أنه خطر ببالهم ، فقد أمسك الله عليهم الحياة ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ، ثم بعثهم من كهفهم ليروا الحال غير الحال، والأمر غير الأمر ، فقد صار للتوحيد دولة قائمة ، وأمة مؤمنة ، وسلطان مبارك عتيد . . ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا . . .﴾(١) .

ورسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يعلمنا تلك الحقيقة الدقيقة من أمر الله فى قصة قصها عن رجل من بنى إسرائيل استسلف ألف دينار من رجل آخر ، فقال له صاحب المال ائتنى بشهيد ، فلم يجد الرجل شهيدا يشهد ، وقال لصاحبه : أما ترضى بالله شهيدا ؟ فقال : كفى بالله شهيدا ! فائتنى بكفيل : فلم يجد الرجل من يكفله فى الدين ؛ فقال : كفى بالله كفيلا ! فقال صاحب المال: صدقت . . وأعطاه المبلغ . . وخرج الرجل إلى ما وراء البحار ، فلما حان أجل الوفاء بالدين أقبل على ساحل البحر يلتمس مركبا يرسل بها المال إلى صاحبه فلم يجد، وطال بحثه وانتظاره على غير طائل، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة معها إلى صاحبه ، ثم زجج موضعها ، ثم أتى بها البحر ، ثم قال: اللهم إنك قد علمت أنى استسلفت فلانا ألف دينار ، فسألنى كفيلا فقلت : كفى بالله كفيلا ، فرضى بذلك ، وسألنى شهيدا فقلت : كفى بالله شهيدا ، فرضى بذلك ، وإنى قد جهدت أن أجد مركبا أبعث بها إليه بالذى أعطانى ، فلم أجد مركبا ، وإنى استودعتكها ، فرمى بها فى البحر ... « فخرج صاحب المال حين

---

(١) الكهف : ٢١

حل أجل الوفاء بالدين إلى ساحل البحر ينتظر قدوم المدين فلم يقدم ، ولكنه رأى خشبة قد طرحها الموج ، فأخذها لأهله حطبا ، فلما كسرها وجد المال والصحيفة التي كتبها له المدين يشرح فيها حاله .. وبعد مدة عاد المدين من سفره ومضى إلى صاحبه ليدفع له الدين ، فقال له : إن الله قد أدى عنك الذى بعثت به فى الخشبة ، فانصرف بمالك راشدا » (١) ... !!

وشاهدنا فى القصة أن بركة تقوى الله تولت عن الرجل المؤمن الصادق إيصال المال إلى صاحبه بعد أن ابتغى الأسباب المادية فى كل وجه فلم يجد ، فرفع طرفه إلى السماء يعلن إلى الله نفاد حيلته . وانقطاع سببه : فقال اللهم إنك قد علمت أنى استلفت ... وأنى قد جهدت أن أجد مركبا أبعثها إليه بالذى أعطانى فلم أجد مركبا ... »

تلك شواهد جليلة من الكتاب والسنة تدل على أن تقوى الله سبحانه مفتاح عجيب وسر خطير : يفتح به الله للإنسان ما شاء من خزائن ، ويهب له ما شاء من سلطان على ما يعلم ومالا يعلم من سنن وجنود وقوى خفية فى ملكوت السماء والأرض . حتى لتستطيع أن تقرر وأنت آمن كل خطأ أو غلو — أنها السنة العليا التي ينفذ الله بها لأهلها ما يشاءون على هذا النحو العجيب . حتى ليحسبهم الرائى أنهم حكام دولة السماء يتحكمون فى مقاديرها وسننها على ما يريدون ، كما يتحكم حكام دولة الأرض فى مقاديرها وسننها على ما يريدون . ولكنه الله سبحانه تأذن للبشر — وقد خلقهم من طينة هذه الأرض، وحبسهم فى حبوس مادتها المظلمة — أن يجعل لهم بتقواه سلطانا ينفذون به من تلك الحبوس الضيقة إلى رحاب السماء ، ويكون لهم به فى ملكوتها ما يشاءون . ما داموا صادقين.

(١) روى ذلك الإمام أحمد بإسناد صحيح، ورواه البخارى فى مواضع من طرق صحيحة معلقا عليها بصيغة الجزم .

فى إبتناء وجهه على نحو ما قال سبحانه: ﴿ وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ . لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ . ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾(١) .

ذلك كله يكشف لنا عن ضآلة أفق المادة إذا رحنا نوازن بينه وبين ما فى الأفق الروحى من أسرار وأرزاق وآيات ، ويكشف لنا عن ضآلة مداركنا المادية فى جهدها وحصيلة ثمرها إذا رحنا نقارن بينها وبين مالنا من مواهب روحية ...

ولسنا نتحدث فى هذا المقام عما يلحق الإنسان من خسارة حين يكفر بأفقه الروحى ، ويجعل تعويله كله على أفقه المادى وحده . إنما بصدد إيراد طرف من الحديث نتبين به معالم أفق الروح فى الكيان البشرى ، وهو الأفق الذى أراد الله سبحانه أن يعمره بالسر الذى نفخه فينا، وهو أهم آفاقنا شأنا وأجلها قدرا .. ونحسب أن قد تبين مما تقدم معنى قولنا فى صدر هذه الكلمة : إن ذلك السر الروحى هو الملكة الربانية أو الجهاز الإلهى — ولله المثل الأعلى — الذى جهز به الإنسان ليؤدى به حق ما أسند اليه ...

إن الله سبحانه يريد لهذه الأرض أن تحيا بالحق .. يريد لنا أن نقوم عنه بذلك. فما لم يكن لنا من المواهب الروحية ما نستنزل به الحق ، وما نحمل به الحق، وما نؤدى به الحق ، وما نجاهد به فى سبيل الحق ، فكيف نقوم بما نريد ؟ . .

---

(١) الزمر : ٣٣ ، ٣٤

الباب الثالث

أفق الملائكة

أفق الملائكة

روى أحمد ومسلم — رضى الله عنهما — عن رسول الله ﷺ قوله :

« خلقت الملائكة من نور ؛ وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق الانسان مما وصف لكم » .

ذلك حديث صحيح لرسول الله ﷺ ، يذكر فيه الأصل الذى خلقت منه الملائكة ، والأصل الذى خلق منه الجان ، والأصل الذى خلق منه الإنسان . . . وهو حديث جليل بعيد المرامى ، متعدد المعانى ، لا يريد به — عليه السلام — مجرد الإخبار عن الأشياء التى خلقت منها الملائكة والجن والناس ، إنما يريد إلى جانب ذلك الإشارة إلى ماوراءه ..

ولو كان — عليه السلام — يريد مجرد الإخبار والفائدة العلمية لاكتفى بذكر النور االذى خلقت منه الملائكة دون حاجة إلى ذكر الأصلين الآخرين ، فإن القرآن الكريم تولى تقريرها تقريراً مؤكداً مكرراً فى غير موضع منه . .

فرسول الله ﷺ — إذاً — يريد شيئا فوق الفائدة الإخبارية ، يريد أننا لانعيش فى هذا الكون الرهيب العميق وحدنا مع صنوف الطير والوحش والبهائم . ! ويريد أن نقابل بين نوعين من الكائنات التى تحيا معنا فيه ، وتتصل بنا ونتصل بها ، ويريد بهذه المقابلة أن نختار لأنفسنا بين ما أصله نور ، وما أصله نار .

لابد لنا من أصدقاء مؤنسين فى هذا الكون الغامض ، فمن أى النوعين نختار ذلك الصديق المؤنس . والعشير الصالح ، والقرين النافع ؟! .. من الملائكة ، أو الجن ؟! .. من النور أو النار ؟ !

ومما هو جدير بالملاحظة أن رسول الله ﷺ — وهو يتحدث عن الأصول

التى خلقت منها هذه الأنواع — لم يذكر الأصل الذى خلق منه الإنسان ، واكتفى بذكر الأصلين الآخرين فقط ، كأنه يريد أن يركز الأذهان فى المقابلة بين هذين الأصلين وحدهما ، ويحصر الانتباه فى المقارنة بين النور الذى تألفه الطباع والنار المحرقة ، ليختار الإنسان صديقه وقرينه على علم وبينة .. !

ومادام فى الإنسان آفاق نفسية تتسع للاتصال بالملائكة والجن ، فلينظر المرء أى قرين يحله من نفسه ، ويخالطه بكيانه من هذين النوعين : ملك أوجان ؟ ! نور أو نار ؟

معنى السجود لآدم :

وأول صلة الملائكة بنا فى قصتنا الكريمة أنهم أول من اتصل بأبى البشر عليه السلام ، إذ سجدوا له بأمر الله عز وجل عندما نفخ فيه سبحانه من روحه .

ومن البديهى أن هذا السجود لم يكن سجود عبادة ونسك ، فإن ذلك لايكون لغير الله .. إنما هو سجود تحية وتكريم ومؤانسة ، : . وليس ضروريا أن يكون سجوداً وضعواً له الجباه على الأرض كما نفعل فى سجودنا لله عز وجل ، فالسجود هيئات كثيرة تتنوع بتنوع أصناف الخلائق ، والله سبحانه يقول فى ذلك : ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾[1] ويقول على لسان يوسف لأبيه : ﴿ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ ﴾[2] . ويقول : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[3] ومن البديهى أن سجود الدواب ليس كسجود الملائكة ، وسجودهما ليس كسجود الشجر والزرع الصغير ، وهكذا ... ذلك إلى أن من معانى السجود فى اللغة التطامن والتواضع ، ويقول صاحب المصباح المنير : « وسجد البعير : خفض رأسه عند ركوبه ... وكل

---

(١) الرحمن : ٦ (٢) يوسف : ٤ (٣) النحل : ٤٩

شيء ذل فقد سجد . . » فإذا كان فى سجود الملائكة معنى الذل ، فليس هو ذل العبودية ، ولا الذل المضيع للكرامة ، إنما هو ذل التطامن والمودة الذى نرى شيئاً منه فى قوله تعالى : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ (١) . ونراه فيما يتبادله رحماء المؤمنين بينهم من انكسار الأخ لأخيه المؤمن الذى عبر عنه الحق تعالى بقوله : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٢) .

فهو سجود فيه معنى التحية والمودة ، وخفض الجناح ، والإقرار بالفضل ، قال القرطبى فى الجامع : « وقال قوم . لم يكن هذا السجود المعتاد اليوم الذى هو وضع الجبهة على الأرض ، ولكنه يبقى على أصل اللغة ، فهو من التذلل والانقياد : أى خضعوا لآدم ، وأقروا له بالفضل »(٣)

من خصائص النور

وهذا النور الذى خلقت منه الملائكة ليس كنور الشمس ، ولا القمر ولا المصابيح ، ولا كأى نور نعهده ، بل هو نور من أمر الله ، لا سبيل لعقولنا وحواسنا إلى إدراكه أو تصوره !.. نور له من النور العادى خصائصه ومعناه ، وليس له هيئته وأطيافه ! ..

ومن غير المجدى أن نحاول الوصول إلى كنه الصورة أو الهيئة التى صيغ عليها الملائكة من هذا النور ، فذلك فوق طاقة عقولنا ، فضلا عن كونه غير متعلق بأى نفع لنا فى المعاش أو المعاد . . . وحسبنا أن نعرف خصائصهم النورانية فقط ، فعليها تقوم صلتهم بنا وصلتنا بهم . وهى مصدر ماينالنا منهم من خير فى الدنيا والآخرة ..

وتلك الخصائص إنما هى خصائص النور الذى صيغوا منه ، وقد قلنا إنه من أمر الله ، له من النور العادى خصائصه ومعناه ، وليس له هيئته وأطيافه ... فإذا

(١) الإسراء : ٢٤ (٢) المائدة : ٥٤ (٣) الجامع لاحكام القرآن للقرطبى : حـ١ ص ٢٩٣

تكلمنا عن أوصافهم وخصوصياتهم فبلغ علمنا فى ذلك هو ماللنور المادى من خصائص ومعان ، أما ما وراء ذلك فعلمه عند الله . .

فمن خصائص هذا النور « التواضع » إذيستوى لديه أن يهبط إلى أسفل ، أو يصعد إلى أعلى ، أو يذهب فى أى اتجاه آخر .. وهى صفة تدركها إذا وازنت بينها وبين خصوصية النار التى تنزع إلى العلو والاستكبار ، والتطاول بألسنتها فى الجو إلى أبعد علو ممكن . وسنعرض إن شاء الله فى فصل قادم لخصائص النار التى خلقت منها الشياطين لنرى أن استكبار الشيطان عن السجود لآدم إنما كان ذهابا مع خصوصية من خصوصيات طبعه الموروث عنها .. فإذا ذكرت ذلك ووازنت بينه وبين تواضع النور أدركت أن سجود الملائكة لآدم عليه السلام إنما كان تعبيرا عن سجية من سجايا النور الذى فطرهم الله سبحانه منه .

ومن خصائص النور ، المؤانسة ، إذ يذهب الوحشة ويبث الطمانينة ، وهى خصوصية لا تحتاج إلى شرح وإبانه ، ويستطيع القارئ أن يدرك أثرها فى نفس آدم — عليه السلام — بالموازنة بين الشيطان إذ أبى واستكبر ، وهدد وتوعد ، وبين الملائكة إذ بذلوا له تحيتهم واقبلوا عليه بالمؤانسة والتواضع .

ومن خصائصه : الرحمه ، إذ يجلو الظلام ويكشف كربته .. وهى غير المؤانسة والتواضع — وإن كان الجميع يستقى من ورد واحد — فالظلام فى ذاته ما برح كربة ثقيلة ، سواء أ كان ظلاما حسيا أم معنويا ... أما الظلام الحسى ، فكربته معروفة لمن جربوه فى كثير من الحالات ، وأما الظلام المعنوى ، فشر أنواعه هو ما يرين على القلب من ظلمة الآثام ، وضباب الهوى والشهوة ، مما يحرم المرء ثمار النور الإلهى ، ويعرضه لشر العواقب وأفدح الضرر .

وللإنسان ذنوبه وجهالاته التى تثقل كاهله ، وتنقض ظهره ، وتورثه ظلام القلب ، ورهق العيش ، .. والملائكة بإزاء ذلك رحمتهم النورانية فيكربون لما ينال أهل الأرض من رهق وظلام وشقوة ، كأنما يحملون ما يؤود هؤلاء من أوزار

فيضرعون إلى الله جل شأنه أن يكشف عن عباده المؤمنين ما بهم من سوء ، ويحط عنهم ما يثقلهم من آصار.. يستوى فى ذلك ملائكة الأرض وملائكة السماء ، وحملة العرش ، وغير حملته ، وما أجمل ما تقرأ من ذلك فى كتاب الله عز وجل : ﴿ هُوَ الذى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ ، وكانَ بِالمؤْمِنينَ رَحِيماً ﴾[1] ... ﴿ الَّذِينَ يَحمِلونَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَيَسْتَغْفِرونَ لِلذِينَ آمَنُوا : رَبَّنَا وَسِعْتَ كلَّ شَىْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً ، فَاغْفِرْ لِلذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ، وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ، رَبَّنَا وأَدْخِلْهُم جَنَّاتِ عَدْنٍ التى وَعَدْتَهم وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِم وَأزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَاتِهِم ، إنَّكَ أنتَ العزيزُ الحكِيمُ ، وَقِهِمُ السَّيِّئاتِ ، وَمَنْ تَقِ السيئاتِ يومئذ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ، وَذَلِكَ هُوَ الفوزُ العَظيمُ[2] ﴾

ومن خصائص النور أنه حارس حفيظ ، إذا حل حلت معه الحراسة والحفظ ، وإذا زال تعرض الإنسان لأنواع المخاطر والأذى :

ذلك قول يقال فى النور العادى ، وفى النور الملكى ،.. أما صدقه فى النور العادى فواضح غير محتاج إلى بيان ، وأما صدقه فى النور الملكى فإننا فى ظلمات هذه الأرض معرضون لكثير من ضروب الأذى والمهالك ، منها ما كشفه الله لنا فتولينا مدافعته عن أنفسنا ، ومنها ما حجبه عنا وتفرد سبحانه بعلمه ، وتولى حفظنا منه ، واختار لهذا الحفظ جنداً من ملائكته ، وأخبر جل شأنه عن ذلك فقال : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يحفظونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ ﴾[3] أى ملائكة من أمر الله يحرسونه ويتعاقبون على حفظه ، قال الإمام ابن كثير : (أى للعبد ملائكة يتعاقبون عليه :

---

(١) الأحزاب : ٤٣ . (٢) غافر : ٧ — ٩ (٣) الرعد : ١١

حرس بالليل وحرس بالنهار ، وأربعة بالليل : حافظان وكاتبان كما جاء في الحديث الصحيح . « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل والنهار ؛ ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ؛ فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم — وهو أعلم بكم — كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون[1]

وقد لفت رسول الله صلى الله عليه وسلم أنظارنا إلى مايجب علينا لهؤلاء الرفقة الكرام من حسن الصحبة وكرم الأدب فقال: « ان معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع ; فاستحيوهم وا كرموهم » .

على أن هؤلاء الحفظة الكرام لايقف برهم بك فى الحراسة عند حد معين بل يذهبون فيها إلى أبعد مدى متصور يرجون عنده أن يحفظوك من بأس الله سبحانه وتعالى، قال الإمام الزمخشرى فى تفسير آية المعقبات السابقة : « يحفظونه من بأس الله ونقمته إذا أذنب ، بدعائهم له ومسألتهم ربهم أن يمهله رجاء أن يتوب وينيب[2] .

ونحن بهذا الاسترسال إنما نحاول أن نمهد الذهن لمعرفة شيء عن أفق الملائكة وعلاقته بنا وعلاقتنا به . .

نريد أن نقر فى الأذهان أن كيان الإنسان قدر فى الأزل، أو صمم على أن يكون له نوافذ تطل على أفق الملائكة ، فوهب له الله سبحانه من الأسرار والملكات الروحية ما يقوم له مقام النوافذ ، فبها يطل على هذا الأفق، وبها يتصل بمن فيه ، ويأنس ويتلقى .

نريد أن يلتفت الإنسان إلى مواهبه ، وأن يعرف قدر نفسه ، وأن يفتح نوافذه كلها ، وآفاقه كلها ليطل منها على هذا الوجود كله ، وليخلص إليه من كل أفق أريجه ، ونسيمه ، وضوؤه ، ودفؤه ، وكل مقومات الصحة والحياة ، فإن القصر المغلق الأبواب والنوافذ إن هو إلا مقبرة ، خير منها الكوخ المتفتح لنعم الحياة ...

---

(١) تفسير ابن كثير : حـ ٢ ص٣ (٢) تفسير الكشاف للزمخشرى حـ٢ ص ١٣٠ .

نريد أن يعرف الإنسان أن تلك المادية التى ضربت على ذهنه وروحه إن هى إلا المغاليق التى أغلقت نوافذه وأبوابه ، وعطلت مواهبه وملكاته ، فلا يطل على الوجود إلا من خلال ثقب ضيق لا يكاد يرى شيئاً منه ولا يكاد يخلص إليه شىء من خيراته وهباته ...

نريد أن يعرف أن الله إذ أخبره فى قصة آدم أنه اختاره لمقام الخلافة ، جعل له فى آفاق الكون الخفى أعوانا من النور ، وأصدقاء من الملائكة ، يبذلون له الود ، ويسعون له فى البر ، ويحفظونه من السوء ، ويمنحونه كل عون ممكن على أداء ما أسند إليه

نريد أن يعرف هؤلاء الأصدقاء الكرام البررة ، ليتصل بهم ، ويأنس بودهم ، ويتلقى مايريدون إلقاءه له من خير وتأييد .

ويطول بنا القول إذا مضينا نحصى خصائص الملائكة ، وعلاقتها بنا ، ومالنا فيها من حظ جزيل ، فنكتفى — بعد ما تقدم — بخصوصيتين لهما أوثق الصلة بالخلافة التى أسندت إلينا .

أما الأولى فهى أن النور ما برح سلاحا من أسلحة الرجل المستقيم وعونا له على أعدائه الذين يريدون به الشر ، ويسعون فسادا فى الأرض . ولا شىء أثبت لجنانه بإزائهم من النور ، ولا شىء أخذل لهم وأوهن لعزمهم منه ... بذا قضت سنة الله فى النور الحسى والنور المعنوى ، ولأمر ما جعل الله من الملائكة وهم من نور — عونا لأهل الحق على ما هم بصدده من مجاهدة أعدائه ، فهم نور يسطع على السرائر الباطنة ، فيفزع منه أهل الباطل ويوجلون ، ويأنس له أهل الحق ويثبتون ، وإلى هذا المعنى يشير قوله سبحانه : (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ، سَأُلْقِي

فى قُلُوبِ الذينَ كَفَروا الرُّعْبَ ، فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأعْنَاقِ . وَاضْرِبُوا مِنهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١) » . . . وفى الكتاب العزيز نصوص أخر تلم بهذا المعنى وتتوفر عليه ، ولكنا نجتزىء بما تقدم .

وأما الثانية فهى أن من خصائص النور الهداية إلى الخير والنفع .. ولاشك أن أفضل الخير ، وأنفع النفع هو العكوف على الحق ، والاستمساك به ، والتزامه فى كل لحظة.. فإذا التمست تلك الخصوصية فى شأن الملائكة ، ونهجهم الذى أخذوا أنفسهم به ، أغناك فى ذلك ما وصفهم به الحق تبارك وتعالى من أنهم : (عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ، لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢)) ، (لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أمَرَهُمْ ويَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٣)) ، (لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ ، يُسَبِّحُونَ الليلَ وَالنهَارَ لاَ يَفْتُرونَ (٤)) .

ذلك هو أثر تلك الخصوصية فيما اهتدوا إليه من الحق ، أما أثرها فى هداية الناس ، وهوماله أثر مباشر فى الخلافة التى أسندت إليهم ، فيبدو من أن الله سبحانه آثرهم بحمل الوحى الخاص إلى رسله وأنبيائه لهداية الناس به . ولا يحمل النور إلا رسل من النور ، والله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته .

ذلك هو شأن للملائكة فى حمل الوحى الخاص بالرسل والأنبياء .. ولهم شأن آخر عام ، يتولون فيه هداية البشر كافة ، هداية فردية ، إذ يحوم الملك على قلب المرء ليلقى فيه مايشاء من النور . وتلك دقيقة من أمر الملائكة لا نستقل بذكرها

(١) الانفال — ١٢ (٢) الانبياء : ٢٦ ، ٢٧ (٣) التحريم — ٦
(٤) الانبياء : ١٩ ، ٢٠

فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقررها ويجلو أمرها بقوله الذى رواه الترمذى وغيره من قوله : « فى القلب لمتان ، لمة من الملك : ايعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه ، وليحمد الله . ولمة من العدو — الشيطان — : ايعاد بالشر وتكذيب بالحق ؛ فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ، وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ[1] ﴾ . . .

ومعنى أن للملك لمة فى القلب ، أنه يلم به وينزل بساحته ، قال ابن الأثير فى النهاية : « اللمة الهمة والخطرة تقع فى القلب . . . أراد إلمام الملك أو الشيطان به والقرب منه ، فما كان من خطرات الخير فهو من الملك . وما كان من خطرات الشر فهو من الشيطان »

ولا شك أن الملك إذ يحوم حول القلب ويسطع عليه بنور الخير . ويلقى فيه ما يشاء منه . إنما يمضى فى ذلك مع سجية النور فيه . وخصوصية الهداية التى أشرنا إليها .

وبعد ، فتلك لمحة عما يقال فى أفق الملائكة ، ومالهم بنا من صلة وما بيننا وبينهم من علاقة ...

ولا شك أن الإنسان يسره أن يكون له فى هذا الكون أصدقاء أخفياء من هذا الطراز الفذ . يبذلون له الود ، ويحبون له الخير ، ويغدون ويروحون عليه بالحراسة، والنصيحة ،والتأييد ،والقاء حوافز الحق فى نفسه . . . ويسره فوق ذلك أن يرى فضل الله سبحانه واحتفاءه به ، وعنايته بأمره ، إذ رصد له فى عالم الخفاء تلك الأسرار التى تحنو عليه هذا الحنو ، وتبره هذا البر ، وتحفه بكل تلك الهبات والنفحات . . . إنه فضل يشرح الصدر ، وينير القلب ، وتعظم به المنة ، وينشىء فى

(١) قال الترمذى فى جامعة : هذا حديث صحيح

الشعور طاقات من الفرح يتضاعف بها حق الشكر له سبحانه والثناء عليه جل شأنه.

لكن ذلك الأثر الجميل الذى نجده فى نفوسنا حين نقرأ ما جاء به الإسلام من أفق الملائكة ليس هو موضوع بحثنا ، إنما موضوعه هو تلك الملكة التى جعلتنا أهلا للاتصال بالملائكة ، واتصال الملائكة بنا : نتجاوب بها وإياهم ، ويتجاوبون وإيانا ، وهى الملكة التى جعلت فى كيان الإنسان أفقا خاصا ، أو جانبا من الإدراك العلوى نمتاز به — فيما نمتاز — مما على هذه الأرض من أنواع الحيوان ، وصنوف الطير والوحش .

إننا فى هذا الباب نبسط أمامنا خريطة تكوين الإنسان ، أو خريطة « تصميمه » . ونستعين بالقصة الكريمة على تقرير ما فى هذه الخريطة من آفاق ؛ وهذا الأفق الخاص بالملائكة هو أحدها ، وهو هدف هذا الفصل ومحوره الذى يدور عليه ، ولعلنا نكون قد قدمنا فيه ما يبين الغرض الذى أردنا .

الباب الرابع

أفق الشياطين

أفق الشياطين

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ، وَالجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ(1)﴾.

كلمة عن الجن :

الجن كائنات تساكننا هذه الأرض ، خلقهم الله سبحانه من مارج من نار ، ومنهم إبليس ، لقوله تعالى : ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ »(2)﴾

وهم إذ يساكنوننا هذا الكوكب يروننا دون أن نراهم ؛ فلهم مداركهم التى يروننا بها دون أن يكون لنا مدارك نراهم بها : ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ(3)»﴾

ويتناسلون ويتكاثرون: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي!(4)﴾

وهم مكلفون مثلنا ، إذ أخبر الله سبحانه أنه ما خلقهم إلا لعبادته : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾، ومأمورون أن يؤمنوا بكتب الله ورسله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا !! فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ، قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى

---

(1) الحجر : ٢٦ ، ٢٧ (2) الكهف : ٥٠ (3) الأعراف : ٢٧
(4) الكهف : ٥٠.

أَلْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ، يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ ..[1] إلخ » ﴾ .

وفيهم من يؤمن بربه ، ومنهم من غلبت عليه شقوته كإبليس ، فهو من الضالين: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً﴾[2] .. ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ ، وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ[2] ﴾.

وفى إمكانهم أن يتصرفوا فى مادة هذه الأرض بسلطان من الله: ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ، وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾[3] ، ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ[4] ﴾ .

وفى استطاعة الإنسان — بإذن الله — أن يسخرهم هذا التسخير ، ويتخذهم جندا له إذا بلغ ما يرشحه لذلك من صفاء النفس وقوة الروح ، وإيثار الله له ، كما كان سليمان عليه السلام ، إذ حشر له جنوده من الجن والإنس : ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ[5] ﴾ .

وإذا كان ذلك التسخير خصوصية لا تنبغى لأحد بعد سليمان عليه السلام ، فإن سر تلك الخصوصية لم ينقطع بعده ، فقد روى الشيخان رضى الله عنهما عن النبى صلى عليه وسلم أنه قال : **ان عفريتا من الجن تفلت البارحة ليقطع علىّ صلاتى فأمكننى الله منه**

---

(١) الأحقاف : ٢٩ — ٣١ (٢) الجن : ١١ ، ١٤ (٣) النمل : ٣٩
(٤) سبأ : ١٣ (٥) سبأ : ١٢

فاخذته فاردت أن أربطه الى سارية من سوارى المسجد حتى تنظروا اليه كلكم فذكرت دعوة أخى سليمان : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ **فرددته خاسئا**

وهم يرهبون أهل الجد فى الله المنقدى العزائم على ذكره فى كل حال ، فلا يعرضون لأحد منهم بطريق.

ومما له أوثق الصلة بموضوعنا أنه ما من آدمى إلا له قرين من شياطين الجن يلزمه حيث كان ، وفى صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« ما منكم من أحد الا وقد وكل به قرينه من الجن ، قالوا : وأياك يارسول الله ؟ قال واياى ، الا أن الله أعاننى عليه فاسلم ، فلا يامرنى الا بخير »

وفى قوله عليه السلام : « إلا أن الله أعانى عليه » ما يدل على أن ملازمة القرين لا يقصد بها إلا البغى على الإنسان ، وإلحاق الأذى به ... وفى قوله : « فلا يأمرنى إلا بخير » ما يدل على أن إلقاء الشر والوسوسة به هى الضرر الذى يريد عدو الله إلحاقه بنا ، إلا أن همة الرسول صلى الله عليه وسلم لوت زمامه وأخذت بخلا قيمه حتى أنزلته على أحكامها القدسية فأسلم ، فلم يكن منه إلا الخير . . .

* * *

من خصائص الشيطان

تلك كلمة عن الجن أردنا بها التمهيد والاستئناس لما نحن بصدده من الكلام عن أفق الشياطين ، وماله من صلة بآفاق الإنسان المتعددة ، فإنه الأفق الثالث من الآفاق المحيطة به . وله معها نهج من المعاملات . ولها أثر فى المهمة المسندة إليه .

ولقد تكلمنا فيما مضى عن أفق الروح ، وأفق الملائكة ، ونحن فى هذا الفصل بإزاء آية كريمة من آيات قصة آدم تشير إلى أفق ثالث هو أفق الجن ،

وتنبه الأذهان إلى ما يقابله ويطل عليه من آفاق الإنسان ونوافذه . . . فماذا في هذه الآية ؟

لقد ذكر الله فيها نار السموم التي خلق منها الجان ، وقرنها بأخرى ذكر فيها الصلصال الذي خلق منه الإنسان ... ولا شك أن هذا الاقتران ليس محض مصادفة ، ولا هو لمجرد الإخبار وسرد الأحكام ، فإن الله سبحانه يذكر عقب هاتين الآيتين قصة آدم ، وما كان من استنكار إبليس وعصيانه ، وإعلانه حرب الإبادة الروحية على الإنسان ، حربا تسخر فيها جراثيم الإثم ، وجنود المعصية والإنحلال الخلقي ، وهي شر ما يهزم فيه الأفراد والشعوب من حروب ومعارك !

فهناك — إذا — شأن أي شأن بيننا وبين هذا العدو المبين . فإذا قرن الله تعالى بين ذكر الأصل الذي خلقنا منه والأصل الذي خلق منه هذا العدو ، فهو اقتران يجاوز معنى السرد والإخبار المجرد إلى معنى من التحذير ، ينبه فيه الأذهان إلى ما يكمن في أصل هذا العدو من خلائق السوء ، وخصائص الشر التي يهلك بها العباد . . . وهو تحذير ينقدح صوته وتطير شرارته من خلال المقارنة بين خصائص نار السموم المهلكة ، وخصائص الصلصال الضعيفة التي لا قبل لها بمكرمة

ولقد سبقت الإشارة — في فصل سابق — إلى بعض خصائص الصلصال والحمأ المسنون... أما نار السموم التي خلق منها الشيطان فلم نجد فيما قال المفسرون عنها ما يشفي غلة من يريد المعرفة ... فالسموم عندهم هي الريح الحارة بالنهار . . وقيل بالليل . . . وقيل الحرور والسموم بالليل والنهار ، إلى آخر ما هنالك مما لا طائل وراءه .

والحق أن الجن كائنات لا تدركها الأبصار — كما تقدم — ولا تقع في

مستوى حواسنا المادية : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ(١) ﴾ ... ومن التكلف الذى لا يفضى إلى شىء أن نحاول معرفة كنه النار التى خلقت منها تلك الكائنات؛ فهى قطعا ليست كالنار التى نعرف، وليست كأى نار يمكن تصور هيئتها ، فتلك أمور سمعية يتوقف الإيمان بها على الخبر الصادق وحده الذى نزل به الوحى من عند الله . أو صح عن المعصوم صلى الله عليه وسلم .

والذى يهمنا من هذه النار ليس هو صورتها ، ولا العناصر التى تؤلفها ، بل خصائصها وأسرار صفاتها .. ولقد أوردنا ، أن الرسول عليه السلام حين تكلم عن خلق الإنسان من تراب . صرف أبصارنا عن هيئة الطين وصورته ، إلى ما تلمح مدارك الرمز من تقابل بين خصائص الطين وخصائص بشرية الإنسان ... فنحن على هذا لسنا بصدد البحث فى تركيب الصور والأشكال ، بل بصدد الصفات التى يمكن أن يستكن سرها وراء ذلك !

(أ) الكبر

لقد قرر القرآن الكريم من هذه الصفات : الكبر ، وهو وصف يرى فى نزوع النار إلى الاستطالة والاستعلاء وإرادة الارتفاع ، وإنا لنقرأ فى القصة الكريمة أن الشيطان حضره ذلك الطبع حين أمر بالسجود لآدم فأبى أن يكون مع الساجدين. فطرده الله من رحمته : ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا(٢) ﴾ .

ولقد يدق على كثير من الناس معنى الكبر ، فيذهبون فى فهمه مذاهب شتى

---

(١) الأعراف : ٢٧ (٢) الأعراف : ١٣

فأراحنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ محضه لنا، وأعلن حقيقته سوية واضحة: « **الكبر بطر الحق، وغمط الناس** »[1].

وبطر الحق: رده وعدم الإذعان له.

وغمط الناس: ازدراؤهم وانتقاص أقدارهم وحقوقهم.

فالكبر على هذا: هو الأنانية الجاهلة، التي تريد أن تكون إلهاً في الأرض لا يخضع لحق، وطاغية في الناس لا يريد أن يذهب أحدهم بكرامة أو خير، إذ يرى نفسه أولى بكل شيء.

وكلتا شعبتي الكبر بارزة في قصة امتناع إبليس من السجود لآدم: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ؟ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ، خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾[2].

فقد توجه أمر الله إليه بالسجود — وأمره سبحانه حق — ولكنه رد هذا الحق ورفض الإذعان له، معلناً فضله على آدم واحتقاره لشأنه: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾.

(ب) العجلة والغضب

ومن صفات النار التي يمكن إسنادها إلى الشيطان كذلك، ما ذكره القرطبي في تفسيره قال: قال الحكماء: « ... ومن جوهر النار الخفة والطيش والحدة والاضطراب ».

وهي صفات يمكن استنباطها بمجرد المشاهدة والمراس، ويجمعها لك معنى العجلة والغضب، ويستأنس لها بما رواه أبو يعلى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **التأني من الله، والعجلة من الشيطان** » — قال الحافظ المنذري: رواته

(١) رواه مسلم والترمذي (٢) الأعراف: ١٢

رواة الصحيح ، وبما رواه أحمد وابو داود : **أن الغضب من الشيطان ، وان الشيطان خلق من النار »** .

والتأني ليس معناه البطء والتسويف عن مبادرة الخير ، إنما هو النظرة الفاحصة البعيدة التي تريك مقدمات كل أمر ونتائجه ، وأوائله وأواخره ، بحيث لا تسرع بإنفاذ أمر من الأمور أوْ ردّه إلا بعد أن ترى ماله من عواقب ، لا بمجرد رؤية الصفحة التي يقبل بها عليك ، فما الأمور إلا عواقبها ، وما الأعمال إلا خواتيمها ، فإذا بدت لك العاقبة وخبرت حقيقة البواطن فأنفذ ما تشاء ، أو دع ، بحسب ما ترى من فائدة ، فرب أمر طابت أوائله وهو وخيم العاقبة . ورب أمر لا تنشرح لبوادره وهو يتضمن الخير ، وهو سبحانه يقول : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وعَسَى أَنْ تُحِبوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، واللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ[1] ﴾ .

أما العجلة فهي قصور النظر وسقوط الهمة عن التعلق بالغايات البعيدة العالية ، اكتفاء بما يبدو من وجه الأمر وظاهره لأول وهلة .

ولعل المتأمل في قصة امتناع إبليس من السجود لآدم ، يرى أثر العجلة والغضب في عصيانه أمر الله ، فإن طبع الكبر ما كاد يحضره ويتحرك في نفسه حتى حضره طبع الطيش والخفة ، فعجل إلى اتخاذ هذا الموقف من الله ، دون أن يجد في طبعه مسكة من الحلم والروية ، وأعماه غضبه الذي سارع اليه عن أن يرى عاقبة أمره ، وينظر فيما يحل به ، وهو الذي يعرف من قهر الله وبطشه ما يعرف .

— اختلف المفسرون في شأن إبليس عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وإِذْ قُلْنَا

---

(١) البقره : ٢١٦

لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلاَّ إبْلِيسَ أبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ . فقال فريق منهم : إن إبليس كان من الملائكة ، بدليل أن الله وجه الأمر بالسجود إلى الملائكة ، ثم استثناه منهم لما عصى أمر السجود . فأسلوب الاستثناء في الآية يدل على أنه كان من الملائكة ... ولما ردت عليهم آية سورة الكهف بقوله تعالى : ﴿ إلاَّ إبْلِيس كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أمْرِ رَبِّهِ ﴾ ، قالوا : إن المراد بالجن قبيل من الملائكة يتناسلون ، ولهم ذرية ، لأن أبليس له ذرية . .

وهذا القول يعترضه أن الملائكة لاتجوز عليهم المعصية ، فقد قال الله فيهم: ﴿ لاَ يعْصُونَ اللهَ مَا أمَرَهُمْ ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ ، فإبليس إذ عصى لم تكن له عصمة الملائكة ، فدلت معصيته على أنه ليس منهم . . ذلك إلى أن الملائكة لا يتناسلون ولا ذرية لهم ، وقد سفه القرآن عقيدة الذين ﴿ جَعَلُوا الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إنَاثاً ﴾ ..

وذهب فريق إلى أنه من الجن لا من الملائكة مستندا إلى نص آية سورة الكهف : ﴿ إلاَّ إبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ .. إلخ ﴾ ، ولكنه وجد أسلوب الاستثناء فى آية الأمر بالسجود يرد عليه ، لأن الله استثناه من الملائكة كما هو ظاهر الآية ، فهو — إذا — منهم ، لا من الجن فلجأ إلى تعليل هذا الاستثناء بأنه من الجن حقيقة ، ولكنه كان قد تربى بين الملائكة من صغره . فأخذ حكمهم حين أمروا بالسجود . وعلى هذا جاز الاستثناء

ونرى أن موضوع تربيته بين الملائكة وقصته التى قيلت فيه . من صنع الخيال ، إذ لم يرد شيء منه فى كتاب ولا سنة ثابتة ..

والذى نراه فى شأن إبليس : أنه من الجن كما تدل عليه آية سورة الكهف : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ وأن الأمر بالسجود لم يصدر للملائكة وحدهم . بل كان ثم أمر من ذلك صدر لإبليس خاصة ، دل عليه قوله تعالى فى سورة الأعراف : ياإبليس (مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ؟) ... وبما أن سورة الأعراف مكية فقد كان لدى المجتمع الإسلامى علم بذلك الأمر الخاص بإبليس ، فلما نزلت آية البقرة بعد ذلك بالمدينة كان وجه النظم أن يقال فيها : وإذ قال ربك للملائكة ولإبليس اسجدوا لآدم ... الخ » ، ولكن الله تعالى اقتصر فيها على ذكر الأمر الصادر للملائكة ، اكتفاء بسبق العلم بالأمر الصادر لإبليس . ومن البلاغة حذف ما تدل عليه قرائن المقام . فكيف بما تدل عليه نصوص القرآن الصريحة ؟ .. وأمثال ذلك الحذف فى القرآن كثير ..

شياطين الانس

ولقد قلنا إننا فى قصة التكوين بإزاء تقرير صفات مجردة . فالشيطان ليس شرا على نفسه وعلى غيره إلا بهذه الصفات ، فحيثما وجدنا هذه الصفات فى تراب أو نار ... فى إنس أو جن ، فنحن بإزاء شيطان ... ولهذا أمرنا فى القران الكريم أن نستعيذ من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى الصدور من الجنة والناس ، بل لقد جاء القول صريحا فى القرآن الكريم بأن من البشر شياطين تعادى الحق الذى جاءت الأنبياء به كما تعاديه شياطين الجن : (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً[1]) .

---

(١) الأنعام : ١١٢

ولشياطين الإنس فى إضلال المجتمع وفتنته وتزيين الشر له أساليب تختلف باختلاف ما لكل منهم من ثقافة أو بيئة أو مهنة أو جاه . ولكنها تهدف كلها إلى غاية واحدة هى معاندة الحق ورده ومحاولة إطفاء نوره . ولن تخطىء فى هؤلاء الشياطين صفات الكبر والعجلة والضيق بدعاة الحق ، وإعلان الغضب عليهم والثورة بهم .

وإنك لتجد الكبر يذهب بالواحد من هؤلاء إلى حد الاشمئزاز من الله نفسه ، دون الاكتفاء برد الرسالة ، والإعراض عما جاءهم من الحق ، ولقد ابتلينا فى مجتمعنا هذا بمن إذا حدثته عن الله رأى نفسه فوق ذلك ، وأنغض إليك رأسه ، فإذا حدثته عما قال فلان أو فلان من الفرنجة انبسط إليك وأقبلت أساريره نحوك بالبشر ، وذلك ديدنهم فى كل عصر ودأبهم الذى سجله الله سبحانه فى قوله :

(وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ[1]) .

فإذا نظرنا إلى طبع الإنانية الذى غلب على الشيطان فملأه بالحقد على آدم ، ودفعه إلى أن يضمر له عداوة الأبد ، وجدنا أن هذا الطبع نفسه هو الذى يدفع شياطين الإنس إلى معاداة الرسل والأنبياء ، ودعاة الإصلاح فى كل عصر ، ذلك أنهم يدركون ما تهدف إليه الدعوة من تغيير أوضاع المجتمع ، وهى أوضاع حسنت بها حالهم ، واتسقت منافعهم ، وقام لهم بها جاه وسلطان ، فلا يتصور من أحدهم أن يستكين حتى يقضى عليه ، بل لابد من منازلتها بكل ما يملك من قوة ، ولا يتصور منه حينئذ أن يكون مستعدا للأخذ والعطاء ، والإصغاء لتبين وجه الحق فيما يقال ، فإن العقدة لديهم ليست فى افتقارهم إلى وضوح البرهان ونصاعة الحجة ، فلعل وضوح البرهان مما يزيد فزعهم ، ويضاعف طاقات المقاومة فى نفوسهم ،

---

(١) الزمر : ٤٥

بل المسألة بالنسبة إليهم مسألة حياة أو موت : حياة ترف وجاه ومنفعة ارتبطت بهذه الأوضاع ، أو موت تفلت به منهم أسباب السيطرة والمنفعة ...

فإذا ثاروا فى وجه دعاة الإصلاح يكفونهم عن الكلام ، ويسلبونهم حرية الدعوة والبلاغ ، فهى سنة أمثالهم منذ كان فى الأرض طائفة تنتفع من الأوضاع الفاسدة : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ، وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ ، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ، وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ[1] ﴾ ، وإذا عمدوا إلى تشويه قصدهم واستعداء ذوى السلطان عليهم ، فهى كذلك سنة أمثالهم فى كل عصر : ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ، قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ، وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ[2] ﴾ ، ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ[3] ﴾ .

حرب صفات لصفات

وبعد ، فإننا لم نفرغ من كل خصائص الشيطان وطبيعة النار التى خلق منها . فمن خصائص النار الإحراق ، والإهلاك ، والإتلاف ... ولسنا بحاجة فى تعرف ذلك إلى الاستئناس بأثر من الكتاب أو السنة ، فهو من خصائص كل نار نعرف ، غير أنه إحراق لا ينال أجسامنا ولا الظاهر من صورنا وماديّاتنا ، بل هو مسلط على

---

(١) ابراهيم : ٩ (٢) الأعراف : ١٢٧ (٣) غافر : ٢٦

حقيقة الإنسان ، وما أنشأه الإيمان فى صدره من دواعى الخير وعزائم الرشد ، وهى للمعيار الذى تقوم به درجته : « **فان الله لا ينظر الى صوركم وأموالكم ، ولكن انما ينظر الى قلوبكم واعمالكم** » .(١)

فإذا أتى الشيطان على تلك القلوب والأعمال ، فقد أتى على حقيقة الإنسان ، وأباد أنفس ما يملك : فجرد باطنه من كل خير ، ولم يترك له إلا صورة اللحم والدم ، وهى لا تزن فى ميزان الحق مثقال ذرة .

ولقد قررنا فى غير موضع أن السر الذى نفخه الله فى الإنسان هو الجانب الحى فيه ، وهو الذى يمد طبيعته الترابية السلبية ، بأسرار القوة والإيجاب . فإذا بها قادرة على إظهار أكمل الفضائل وأحسن الصفات ... هذا الغرس الطيب ، وهذا النور فى الطينة الظلماء ، هو الهدف الذى يكيد له الشيطان ، وهو ما يهيج فيه أعاصير الشر والحقد والغضب .

ولقد شبه القرآن الكريم ما يحدثه الإيمان فى قلوب المؤمنين بأنه : ﴿ جَنَّةٌ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ، فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ ... وعقب على ذكر تلك الجنة بما يفعل الشيطان فى إتلافها فقال : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ .. ﴾ ، إلى : ﴿ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢) .. ﴾

ولسنا الآن بصدد شرح تلك الحقائق النفيسة فى كتاب الله ، لأنها أدخل فى

---

(١) رواه البخارى وابن ماجة .

(٢) البقرة : ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

جاب التطبيق العملى . ونحن فى مقام التقرير النظرى لخصائص الأشياء . ولعل مما يؤنس إيمانك فى هذا المقام أن نسوق لك ما جاء فى صحيح البخارى متعلقا بهذا المعنى : « قال عمر رضى الله عنه يوما لأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : فيم ترون هذه الآية نزلت: « أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل ... الآية » قالوا : الله أعلم. فغضب عمر وقال: قولوا نعلم أو لا نعلم ... فقال ابن عباس : فى نفسى منها شىء ياأمير المؤمنين ، فقال عمر : قل ياابن أخى ولا تحقر نفسك. قال ابن عباس: ضربت مثلا لعمل ، فقال عمر : أى عمل ؟ قال ابن عباس : لعمل رجل عمل بطاعة الله . ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصى حتى أحرق عمله ..

وإذا كان الشيطان يحرق ويدمر ما ينشئه الإيمان فى قلب ابن آدم من مظاهر الحياة والعمران الروحى . فإن تلك الصفات البغيضة . «الكبر، والعجلة، والغضب» هى ألسنته النارية التى يحتال لتسريبها إلى نفوس الناس . فأيما صفة منها استطاع أن يقذفها فى روع أحد، محقت ما فيه من خير ، وكان لها أثرها الاجتماعى السىء .

فالحرب بين الشيطان والإنسان حرب صفات لصفات ؛ وقد ذكر لنا الإسلام من ملامح صفات الشيطان ما يكفى لمعرفتها والنجاة منها .

* * *

المحور الأصيل لعمل الشيطان

قال الشيطان وهو يحاج ربه : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ، ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ، وَمِنْ خَلْفِهِمْ ، وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ ، وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ، وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١) ﴾ .

---

(١) الأعراف : ١٦ ، ١٧

وقد ذهب المفسرون مذاهب فى تأويل قوله : « من بين أيديهم » و « من خلفهم » و « عن أيمانهم » و « عن شمائلهم » ... وخالف بعضهم فيها بعضا . وكلها تعتمد على الرأى والاجتهاد فى الفهم . ولكن لا شك فى أنه قول يبين مدى ما سيبذل صاحبه من جهد فى الاحتيال على فريسته . وأنه لن يدع فى آدمى ثغرة إلا نفذ إليه منها .

ومضى الشيطان يتم محاجته لربه . ويبين نهجه الذى سيتخذه إلى ما يريد ، فقال : « رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ [1] »

ولقد قلنا إن ما بيننا وبين الشيطان إنما هو حرب صفات لصفات . لا يعبأ فيها بإراقة دم ، ولا تمزيق أشلاء ، إنما يعنيه محو صفات القوة والخير . وطمس معالم الفطرة التى تمد صاحبها بذلك . فإذا نكبه فيها فقد أرداه . وأورده موارد الهلاك .

فهما أصلان خطيران ، منهما تحاك كل المكائد ، وعليهما تدار الخطط والمعارك .

التزيين فى الأرض ، والإغواء ...

* * *

الغى .

والغى فى الإنسان حالة معنويه تعترى صفاء باطنه فتفسده . وذهب اللغويون إلى ربطها أو موازنتها بما يعترى باطن الفصيل من فساد التخمة والبشم بكثرة الرضاع ، أو بما يعتريه من هزال وضمور اذا منع من الرضاع بسبب من الأسباب . . قال

---

(١) الحجر : ٣٩ ، ٤٠ .

القرطبي فى الجامع لأحكام القرآن : (قال ابن الأعرابي : غوى الرجل غيًّا إذا فسد عليه أمره ، أو فسد هو فى نفسه وهو أحد معانى قوله تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ أى فسد عيشه فى الجنة ، ويقال : غوى الفصيل ، إذا لم يدِرَّ لبنَ أمه)(١) .

وقال صاحب القاموس المحيط : « غوى الفصيل بشم من اللبن ، أو منع من الرضاع ، فهزل وكاد يهلك » .

والإنسان يعتريه الفساد أو الغى إذا انطمست معالم الفطرة فى نفسه ، أو انقطع مدد الروح الإلهى عنه . فتطفأ بصائره . وتفسد مواهبه الروحية الباطنة ، وهو المراد بقوله : « لأغوينهم أجمعين » .

والغى ضد الرشد . . . والرشد رشدان :

أما أحدها فحالة الإدراك التى يميز بها المرء ما يصلح معاشه وما يضره . وهو المعنى بقوله سبحانه فى القاصرين من الأيتام : ﴿ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ (٢) ﴾ وهـذا الرشد لا معول عليه إلا فى تدبير المنافع المـادية ، وهو درجة هينة من التمييز يبلغها الصالح والطالح متى أدرك سنا معينة فى العادة ..

أما الرشد الآخـر : فهـو درجة رفيعـة من إدراك البصيرة : يهتـدى بها المـرء إلى حقائق الوجود »(٣) ويميز قيم المعنويات ، فـلا يشتبه عليـه حق بباطـل ، ولا يلتبس عليـــه الزيف الرخيص بالقيم النفيس ، وهو الذى ذهب موسى عليه السلام يطلبه من العبد الصالح : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ؟ (٤) ﴾

(١) الجزء السابع ص ١٧٥
(٢) النساء : ٦
(٣) قدمنا فى أفق الروح مايعتبر بيانا لهذا المعنى
(٤) الـكهف : ٦٦

وأصحاب هذا الرشد يبدون فى سائر الناس كالعماليق بين الأقزام ، وينظرون إلى سواهم كما ينظر الرجال إلى الأطفال وهم يعبثون ، وهؤلاء هم أوصياء الإنسانية التى لم تبلغ رشدها ، والقائمون على هدايتها بإذن الله إلى سواء السبيل : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وسطا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً [١] ﴾

وإنك لترى أثر ذلك الرشد فى البحث عن الحق والاهتداء اليه فى سيرة إبراهيم عليه السلام إذ قال الله فيه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ [٢] ﴾ . فإنه أدرك بتمييزه العالى أن هناك فى هذا الكون حقا أكبر غير تلك الكائنات الأرضية ، وغير تلك الكائنات السماوية التى تسخرها النواميس ؛ فليس هو كوكبا آفلا ، ولا قمرا زائلا ، ولا شمسا غاربة . ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ [٣] ﴾

فأول ما أدركه إبراهيم صلى الله عليه وسلم : هو سقوط قيمة المرئيات ، وقصور كل شىء منها أن يكون ربا له .. فقد قرأ على هذه المرئيات نفسها من آثار صفات الخالق سبحانه ما جعله يلتمس ربه فى سواها .

وإدراك هذه الحقائق وتمييز قيمها هو مقتضى الرشد ، فمن أدركها كما يدرك أن الواحد نصف الاثنين فهو الراشد ، وإلا فهو القاصر ، وإن حمل من إجازات العلم وألقابه ما حمل .

وإنك لترى أثر هذا الرشد فى ثبات إبراهيم عليه السلام إذ عرض على النار فما تغير له رأى ، وإنه لثبات لم يتكلف له شجاعة ، فإن الحق الذى يفتن من أجله سطع فى بديهته سطوع الشمس ، فليس فيه شك لديه .

---

(١) البقرة : ١٤٣ (٢) الأنبياء : ٥١ (٣) الشورى : ١١

ذلك هو الرشد الذى يحرق كبد الشيطان ، ويجهد جهده أن يحيد بنا عنه ، ويطمس نوره فى بصائرنا . . وعكسه الغى . . فإذا كنت قد أدركت الفرق بينهما فقد أدركت الفرق بين النور والظلمة ، والحياة والموت ، والعقل والحمق ، وما يريد لنا الله ، وما يريد لنا الشيطان !

يريد لنا الشيطان هذا الغى الذى نفقد به إدراكنا العالى ، وتمييزنا الرفيع ، فلا نبصر فى الحياة إلا ما حولنا من شخوص المادة الزائلة ، ولا نميز إلا قيم بعضها بالنسبة لبعض ، ولا نشتغل إلا بتثميرها واستيلادها ، وتداولها ، وتلك هى النكسة البائرة ، والصفقة الخاسرة ، التى لا يود الشيطان سواها !!

* * *

التزيين

أما التزيين فى الأرض ، فقد فسره ابن كثير : بأنه تزيين المعاصى ، وفصل الزمخشرى ما أوجز ابن كثير ، فالأرض هى الدنيا : « لأزيننها فى أعينهم ، ولأحدثنهم بأن الزينة فى الدنيا وحدها حتى يستحبوها على الآخرة ، ويطمئنوا إليها دونهـــــا » .

وكل ذلك صحيح ويجمعه أنه يريد أن يزين كل زيف يعرض للمرء فى حياته ، فإذا أقنعه بقبوله والتحول إليه فقد رده إلى التهلكة .

تزيين المتاع التافه

ومن التزيين ما يتم بإفساد الذوق العام المرء . . . ونعنى بالذوق حالة الوجدان التى تحدث بالقلب حين يميز قيمة من القيم ، أو يتجاوب مع لذة من اللذات . .

فقد يزهد فى الشىء أو يقبل عليه ، وقد يطرب له أو ينقبض عنه ، وقد يحبه أو يكرهه ، ولكن بعد أن يذوقه ويزنه بميزانه . وأغلى ما يذوقه القلب أو يفرح به : الإيمان بالله سبحانه ، فإذا وجد المرء حلاوة ذلك الإيمان وأحس زينته

فى صدره فهو آية سلامة الذوق وصحته ، وإليه يتجه قوله سبحانه : ﴿ وَلَـكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ ، وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ، أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ، فَضْلاً مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً (١) ﴾

فإذا فسد الذوق بهذا التزيين انطمس فيه تأثره بالمعانى القيمة الجميلة، وانحط إلى اشتهاء أبخس القيم وأوكس العروض من أنعام وبنين ونحوهما ، وهذا بعض ما يصيب المرء من نـكسة بتزيين الشيطان ، وقد ندد الله به ونعاه على أهله فى قوله سبحانه : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ، ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ، قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ ؟ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ (٢) ﴾

تزيين الظاهر

ومن التزيين ما يتم بفساد تقدير المرء لقيم الرجال ، وتمييزه لحقائق الناس ، بحيث تغدو مقاديرهم عنده مقيسة بمظاهرهم من الجاه أو المال أو الزينة . فمن يملك من ذلك شيئا فهو الجدير بالتقدمة والرفعة وإن انحط معدنه النفسى ، ومن لاحظّ له منه فلاميزان له ،وإن انطوى على أكبر قسط من عظمة النفس . وسمو الحقيقة، وقديما عجب أهل الطائف أن ينزل الله رسالته على رجل من غير أهل الثراء والرياسة . فردوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا فى تسويغ ذلك : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ من الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٌ ﴾ ،

(١) الحجرات : ٧ ، ٨ (٢) آل عمران : ١٤ ، ١٥

لظنهم أن التقدمة عند الله تجرى على مألوفهم فى تقديم ذوى الثراء والرياسة . . وهذا التقدير الخاطىء هو أثر التزيين الذى يرد الإنسان إلى مظاهر الصور والأشكال بعيدا عن الجوهر الحق والقيم الأصيلة . فرب شخص يرجح أمة . وهو لا يزن عند هؤلاء شيئا . ورب ألف أو ألوف منهم لا يزنون فى ميزان الله إصبع واحد ممن يعيشون مع الحق ، وما أحكم ما أصاب القرآن هدفه إذ صور تلك الحقيقة بقوله الحكيم : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١) ﴾ .

وهذه حال لا يصلح عليها مجتمع . ولا تزدهر بها فضيلة ، ولذا كان لزاما على المصلحين وأصحاب الرسالات ألا يعبأوا بذلك الغثاء . ولا يلتفتوا إلى شىء من تلك الزينة . ولا يختاروا أنصار رسالتهم ودعائم إصلاحهم ومجتمعهم الذى ينشدون إلا من ذوى القلوب، الذين عرفوا الحق ، وأرادوه ، وعملوا له وأقبلوا عليه . فأولئك هم خمائر المجتمع الحق الذين يضعون له تقاليده السليمه . وموازينه السديدة . ويصرفونه عن القشور التافهة . وإلى هذا المقياس الحق والناموس الصادق وجه الله رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢) ﴾ .

تزيين الظنون والوهم

ومن التزيين ما يخدع به المرء عن علمه وعقله فيجرى ، وراء الظنون والأوهام

---

(١) البقرة : ٢١٢ (٢) الكهف : ٢٨

التى لا تستند إلى أساس، وحسب المرء جهلا أن ينصرف عن العلم بالله ، فما تنفعه فلسفته أو معارفه الدنيوية بعد ذلك شيئا ، فإن العلم بالله هو العلم بالحق ، وإذا فات الإنسان أن يجعل الحق أساس علمه فقل فى جهله وضلاله ما شئت :

﴿ فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾(١)

وحسب الواحد من هؤلاء أن يلقى اليه الوهم خاطرا من الخواطر فى باب العقائد ـ مثلا ـ عن الله، أو الملائكة، أو النجوم ،أو البقر أو غيرها، حتى يتلقفه ويجعل منه عقيدة يناضل دونها ، ويحيا عليها ، ويورثها من وراءه ، وما اضطراب العقائد وإنكار وجود الله إلا ظنون فاسدة لا تستند إلى أقل سند من استدلال عقلى سليم : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ(٢) ﴾

والقرآن حافل بأنباء هذه العقائد الوهمية والرد على أصحابها ردا يستعدى العقل وحده فى نقض أصولها . وبيان مكان الوهم منها : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ، أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ(٣) ﴾ ، ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ، مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ(٤) ﴾

وفى عصرنا هذا تروج مذاهب اجتماعية فاسدة ، لا تستند إلى فطرة سليمة أو سنة من سنن الله المقررة ، فهى من قبيل ما يفعل فى كل عصر شياطين الإنس والجن إذ يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا بما يلقون من أوهام ،

---

(١) النجم : ٢٩ ، ٣٠ (٢) الحج : ٨ (٣) الزخرف : ١٩
(٤) الزخرف : ٢٠

ويزينون من ظنون ، ولسنا بصدد بيان تلك المذاهب أومناقشتها،فلذلك مجال آخر.

وميدان تزيين الظنون فى الحياة اليومية أوسع ، ومن فضل الله سبحانه أنه لم يرض للمؤمنين من عباده أن يكون لهم لجاجة فى ذلك التيه المظلم فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إن بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ (١) ﴾

إذ كثيرا ما يرتب المرء على تلك الأوهام نتائج بعيدة الأثر ، فيحب أو يكره . ويقعد أو ينهض . ويعارض أو يؤيد ، ويحارب أو يسالم . تبعا لما يلقى اليه الوهم من تفسير خاطىء لبعض الأمور . أو استجابة لظن تخيل معه أن سيحدث كذا وكذا من النتائج .وهذا أسوأ مايزين الشيطان للإنسان. ويفسد به رأيه... وقد نعى الله على قوم قعودهم عن نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم استرسالا مع وهم فاسد وتخييل سقيم : ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ والْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً ، وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ ، وَظَنَنْتُم ظَنَّ السَّوْءِ ، وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً ﴾(٢) .

تزيين العمل السيء

ومن تزيين الشيطان أن يلقى فى صدور أهل المعاصى أنهم أفضل وأقوم من سواهم . وهذا باب يطول استقصاؤه . وما رأينا مدمنا أو مقامراً . أو مسرفا على نفسه بمعصية ، أو لصا كبيرا أو صغيرا إلا وقد زين له سوء عمله بضروب عجيبة من المسوغات : ﴿ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣) ﴾

ومن التزيين مايخيل فيه إلى الجبارين والطغاة من أهل الجاه والسلطان، أنهم.

---

(١) الحجرات : ١٢ (٢) الفتح : ١٢ (٣) يونس : ١٢

على الحق . وأن مناوئيهم من المستضعفين على الباطل ، وقديما قال فرعون لقومه :
﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ، وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (١) ﴾
﴿ وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ، وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (٢) ﴾

* * *

وبعد . فتلك بعض الميادين التي يغشاها الشيطان فيزين للإنسان مايبيره ويهلكه ، ويفسد له ذوقه العام . فلا يطرب إلا لمتعة الحيوان ، ويفسد له رأيه فتروج فيه الظنون والأوهام . ويفسد له تقديره لحقائق الرجال فتروج لديه للظاهر ، وتضطرب القيم والعلاقات التي تمسك المجتمع . ويزين له سوء عمله فيراه حسنا ، وذلك أسوأ ما يقضى به على إنسان :
﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ؟ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ (٣)

أعاذنا الله من كيد الشيطان وتزيينه وهدانا سواء السبيل .

* * *

---

(١) غافر : ٢٩ (٢) غافر : ٣٧ (٣) الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤

الباب الخامس

أفق المادّة

أفق المـادة

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ، فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، قَالُوا : سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١) ﴾

هل أتينا على كل ما أوردته القصة من خصائص آدم التي تكون منه إنساناً ، وتجعله أهلا لمعالجة شئون هذه الأرض ومزاولة مراسم الخلافة فيها ؟ . لا ، وإننا مازلنا بصدد استكمال ما بقي منها .

نعم لم نزل بصدد الطواف حول ذلك المعنى الكبير — الإنسان — لنعرف مايحيط به من آفاق ، ونعرف النوافذ المطلة منه على كل أفق ، وعلى ضوء ذلك نعرف — بالتدريج — الخطوط الجامعة لشخصيته، خطا بعد خط ، ونتبين الآفاق الخطيرة التي سوى عليها كيانه المعجز الخطير .

ولقد عرضنا — في الفصول السابقة — ما قررته القصة من مواهب الروح التي نفخها الله فيه ، وهي مواهب وصفية محضة ، تتعلق بالمعنويات لا بالمحسات ، ولا ترشحه وحدها لمزاولة أي غرض جليل في هذه الأرض ، وهذا الخليفة الممتاز يجب أن يهبط إلى أرضه ، وهو مجهز بالملكات التي تمكنه من الهيمنة عليها ، واستخراج ما في كنوزها من خير وثروة ...

أو يهبط إليها وهو يحمل معه بأمر الله مفاتيح كل شيء فيها ، وذلك هو بعض مقتضيات الخلافة ، وأيسر شرائطها التي لا بد منها . .

---

(١) البقرة : ٣١ ، ٣٢

إن الله سبحانه لم يرد لخليفته أن يكون ملكا محضا، ولا حيوانا محضا .. إنما أراده بشرا مسيطرا فى هذه الأرض ، يفعل فيها ما لا تستطيع الملائكة ، وما لا يستطيع الحيوان ... وذلك يقتضى تجهيزه بسر ليس للملك ، ولا للحيوان . . سر يفتح له كل ما فى الأرض من خزائن وكنوز ، ويذلل له كل ما فيها من عقبات .. !

* * *

معنى الاسماء كلها

وقد صدرنا هذا الفصل بآية كريمة ـ من آيات القصة ـ يشير الحق تبارك وتعالى فيها إلى أن العلم هو السر الذى امتاز به الإنسان من دون الملائكة ،وذلك قوله جل شانه : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ، قَالُوا: سُبْحَانَكَ لاَعِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ ﴾

وقد قال كثير من المفسرين : إن الله ـ سبحانه ـ علمه الأشياء كلها ، ما كان كائنا منها ، وما سيكون إلى يوم القيامة ، لم يدع من ذلك شيئا كبر أو صغر .. قالوا : وعلمه أسماءها كلها باللغة التى كانت كائنة ، وبكل لغة ستكون إلى يوم القيامة ، وقال أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار فى قصص الأنبياء : « والذى أفهمه أنه علمه جميع الأشياء التى فى جنة عدن، وألهمه وأقدره على وضع اسم لكل ما تقع عليه عينه هناك من زروع وأشجار وثمار وفروع وورق ولب ونوى ، وجميع الأوعية والأدوات التى هناك ، وجميع مافيها من حيوان، وأجزائه، لاحتياجه إليها »

والذى قاله أستاذنا حق، ونزيد عليه أن الله سبحانه بث فى آدم سر الاهتداء إلى خصائص الأشياء، ووسائل الانتفاع بها، ونحسب أن ذلك هو معنى الأسماء فى قوله سبحانه : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ ، أى

علمه حقائق مسمياتها ومالها من خصوصيات المنافع والمضار ، فإن اسم الشيء يقترن دائما في الذهن بحاله من : صورة ، ولون، وأجزاء ، وبحاله من سائر المقومات والمزايا الحسية والمعنوية ... وما جدوى الاسم إذا لم يكن دالا على ما وراءه من مقومات الذات وخصائص الجواهر والعناصر ؟

قال الإمام الزمخشري في تفسيره : «أي وعلمه أحوالها ومايتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية » ..فالمعول عليه ليس هو الاسم المؤلف من حروف هجائية ، إنما ما تدل عليه تلك الحروف ويشير إليه ذلك الاسم من صفات الشيء الذي سمي به .

ولعل مما نستأنس به في هذا المقام قوله سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾، فأسماؤه سبحانه إن هي إلا أسماء صفاته الكريمة ، وما استحقت تلك الأسماء أن تنعت بالحسنى إلا لدلالتها على تلك الصفات القدسية ، فما من اسم منها إلا وهو معقود على صفة هي وصف له ذاتي ، فالقادر والرزاق واللطيف والمغيث — مثلا — ليست كلمات مجردة من المعاني ، فإن وراء كل منها سحائب من فضله ، وخزائن من عطائه ، واللون الذي نستنزله باسم القادر ، غير الذي نستنزله باسم الرزاق، وهكذا ، على حسب ماتدعو إليه ظروف اضطرارنا وافتقارنا إليه سبحانه .. ولذا قال سبحانه في حق تلك الأسماء :﴿ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ ، إذ ليس المراد أن نلوذ بألفاظ الصفات المؤلفة من حروف وأصوات .

فإذا قرأنا أن الله سبحانه علم آدم الأسماء كلها ، فإن الراجح أنه علمه حقائق المسميات ، ومالها من قوانين النفع والضر ، فإنه عليه السلام لم يكن بحاجة إلى معرفة مجموعة ضخمة من الأسماء بجميع اللغات أو بلغة واحدة ، بقدر ما كان بحاجة إلى أن يعرف خواص الكون الذي قدر له أن يهبط إليه . فإذا عرف تلك الخواص فليكن الاسم بعد ذلك ما يكون .

ومما نستند إليه في تقرير هذا الوجه أن نسق الآية يرجحه عما سواه :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ ﴾ فالضمير في «عرضهم» يعود على الأسماء، وهو ضمير يختص بالعقلاء، ولا يجوز أن يعود على الأسماء إلا إذا كان مرادا بها مسمياتها لا مجموعة حروفها التي لا تعقل، قال الزمخشري: ثم عرضهم، أي عرض المسميات.. وإنما ذكّر الضمير لأن في المسميات العقلاء».

فآدم عليه السلام إنما تعلم حقائق الأشياء، وسنن الله التي تحكمها وتضبط خيرها وشرها، وتنظم نفعها وضرها.

وليس المراد بالتعليم أنه سبحانه أعطاه درسا في الكيمياء والطبيعة والفلك والطب ونحوها مما يضع في يده أزمة قوى بين هذا الكون الأرضي، إنما المراد أنه بث فيه من أسرار الفهم والتمييز والاستعداد الفطري ما يكشف به تلك النواميس والسنن ويميز خصائص الأشياء بعضها من بعض

والتعليم هنا مسند إلى الله سبحانه، وحين نعود إلى معاني التعليم التي أسندها الله إلى ذاته مباشرة — أي بدون وساطة ملك أو بشر من الرسل — نراها كلها في القرآن الكريم دالة على ما وهب الله سبحانه من استعداد فطري للإدراك والفهم والإلهام والمعرفة.

وقد يكون هذا الاستعداد الفطري عاما شاملا جميع أفراد النوع الإنساني كما في قوله سبحانه: «علم الإنسان ما لم يعلم» وقوله: ﴿ خَلَقَ الإِنْسَانَ عَلَّمَهُ البَيَانَ ﴾، أي أودع فيه سر النطق والتعبير عما يجول في نفسه من المعاني.

وقد يكون هذا الاستعداد هبة خاصة لفرد معين، أراد سبحانه أن يميزه به ويجعله خصوصية له ...

ولقد كان يوسف عليه السلام ذا بصيرة ملهمة. وملكة مرنة في تأويل الأحلام، فلما فسر لصاحبيه في السجن ما رأى كل منهما من رؤيا قال: ﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾، أي بعض ما وهب لي من استعداد للعلم والفهم، وهو عليه

السلام إنما يرجع فى ذلك إلى قول الله عنه: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتيناه حُكْمًا وَعِلْمًا (١) ﴾ .. ومن البديهى أن ذلك لم يكن دروسا ألقيت عليه، إنما هو نور قذف فى فطرته جعل له هذا الاستعداد الخاص الذى عبر عنه فى أخريات حياته بقوله: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾

وواضح أن التعليم فى حالتيه العامة والخاصه، مراد به سر المواهب التى جهز بها المرء ليدرك أسرار ما يتصل به، ويعلم حقائق ما حوله من الأشياء، فإذا فسرنا قوله سبحانه: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ . بما فسرناه به، فليس هو مذهبا لنا فى الفهم، ولا رأيا نبتكره، إنما هو نهج القرآن، وعين المفهوم من كلامه سبحانه، كلما أسند التعليم مباشرة إلى ذاته الشريفة

وامتياز آدم بهذا الاستعداد واضح من أنه تعالى أشعر الملائكة بأسلوب على جعلهم يقدرون فضله، ويقرون له بالتقدمة عليهم: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ، فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ، قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ العَلِيمُ الحَكِيم، قالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ، فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِم .. إلى آخره ﴾، فقد عرفت الملائكه فى تلك التجربة خاصية آدم فى العلم، وأنه مقدم فيه عليهم، فإن علمه عليه السلام « علم كلى » أخذا من قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾، أما علمهم فهو غير كلى أخذا من قولهم هم: ﴿ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ .

والآيات الكريمة إذ تشير إلى تأهيل آدم بخاصية العلم ليقيم فى الأرض

---

(١) يوسف : ٢٢

نمطا جديدا من الحياة، إنما تسير في الخط الذي يقرر المواهب التي ترشحه للخلافة ..
ولا نستطيع في هذا المقام إلا أن نشير إلى خاصته الأساسية التي هي رأس خواصه كلها، تلك التي وردت في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ . إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ . . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ — أي أتممت له كيان بشريته وخواصها ، اذا سويته على هذا — وَنَفَخْتُ فِيهِ رُوحِي ، فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾، فقد أخبر الله الملائكة أن الخليفة المرتقب سيمتاز بخاصية روحية زائدة على خواص بشريته الأرضية في معرض تكريم له في الملأ الأعلى ، فقد هيئت الملائكة بذلك لأن تدرك « الأسماء كلها » أي الأشياء كلها . كما في قوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها .. وقد حددت مدارك الإنسان مدى تلك « الكلية » في قوله الأسماء كلها . . فهي الكون كله ظاهره وباطنه ... ونعني بالظاهر كائنات الطبيعة ، وما تتضمن من ثروة وطاقات ، ومالها من قوانين ومعطيات .. معطيات في شتى علوم الكون كالكيمياء والطب والأحياء والفلك ونحوها ، وما يستنبط من ذلك من منافع وصناعات ووسائل للعمارة .. والعقل يوجه لذلك خواصه التي نسميها الإدراك الحسي ، أو العقل الطبيعي والرياضي . . . والمراد بالباطن ما ندركه في الكون الطبيعي نفسه من دلالة كائناته على الخالق . والعقل يوجه إلى ذلك خاصية الخالقية التي تبصر في الكون أنه مخلوق ، فإذا استقرت على ذلك انكشفت للفكر معالم الصنع الدالة على صفات الصانع تعالى : صفات القدرة ، والعلم والحكمة ، والكرم ، والود والرحمة والبر .. ومعرفة الله هي حقيقة العلم .. وما أحكم مايلحظ الألوسي دخول هاتين الناحيتين: الظاهرة والباطنه في مضمون قوله تعالى: وعلم آدم الأسماء كلها» ، فيقول في تفسيره : «والحق عندي .. وهو مايقتضيه منصب الخلافة ، هو أنها أسماء الأشياء علوية أوسفلية .. جوهرية ، أو عرضية » ، ويقول في ناحية التعليم الحسي : « إنه خلقه من قوى

متباينة مستعداً لإدراك أنواع للمدركات ، وألهمه معرفة « ذوات الأشياء » وأسمائها وخواصها — ومعارفها ، وأصول العلم وقوانين الصناعات وتفاصيل آلاتها ، و كيفيات استعمالاتها » ويقول عن حقيقة العلم فى الناحية المعنوية : « هو ظهور الحق جل وعلا فيه .... بجميع أسمائه وصفاته حسب استعداده الجامع بحيث علم وجه الحق فى تلك الأشياء ، وعلم ما انطوت عليه ، وفهم ما أشارت إليه . .

ولعلنا قد صرنا بإزاء حقيقة قاطعة بأن ذلك « العلم الكلى » كان قدراً حتميا لقيام الخلافة، إذهى بدونه تصبح غير ذات موضوع ، فليست الخلافة حلية أو شارة مما تتزين به الصدور فى معرض الفخر والمباهاة ، إنما الخلافة نهج من العمل، وتكاليف رفيع القدر لاتؤدى تبعاته ، ولا يتحقق على وجهه إلا بالعلم .. ولعل هذا يرشح الذهن والنفس إلى موضوع الخلافة ...

* * *

الباب السادس

الخلافة

أولا : فى إطار الخلافة

١ ــ من الخليفة ؟..

الخليفة فى اللغة من يخلف غيره فى أمر من الأمور : قال الإمام الطبرى فى تفسيره ... « الخليفة من قولك خلف فلان فلانا فى هذا الأمر ، إذا قام فيه مقامه »

واختلف العلماء فيمن هو الخليفة ؟ ..

(أ) فروى الطبرى عن الحسن البصرى : أن المراد بالخليفة : « هم أولاد آدم الذين يخلفون أباهم آدم ، ويخلف كل قرن منهم القرن الذى سلف قبله »

فالخليفة فيما يرى الحسن البصرى — ليس هو آدم عليه السلام ، إنما هم بنوه لأنهم يخلفون أباهم ويخلف بعضهم بعضا

(ب) ويقول القرطبى : « والمعنى بالخليفة هنا فى قول ابن مسعود وابن عباس . وجميع أهل التأويل . آدم عليه السلام » فابن مسعود وابن عباس وغيرهم يرون الخليفة هو آدم — عليه السلام — لا أبناؤه .

(ج) ويقول الزمخشرى : « وأريد بالخليفة آدم . واستغنى بذكره عن ذكر بنيه . كما يستغنى بذكر أبى القبيلة فى قولك : مضر وهاشم » أى أن الزمخشرى يرى المراد بالخليفة هو آدم وبنوه جميعا ، وإنما لم يذكر بنوه فى الآية اكتفاء بذكره لأن ذكره يشملهم ويدل عليهم ، على مألوف العرب فى الاكتفاء بذكر الأب حين يراد القبيلة كلها ، كما يقال: مضر ،والمراد بنو مضر جميعا .. ويوضح ابن كثير ذلك بقوله : « والظاهر أنه لم يرد آدم عيناً ــ أى بعينه ــ إذ لو كان ذلك لما حسن

قول الملائكة : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل هذا » . أى أن الملائكة رأت أن وصف الخلافة ينسحب على النوع بأسره — لا على آدم فقط — فكان كلامهم عن الإفساد وسفك الدماء متوجها إلى من يفعل ذلك من ذريته لا إليه .

والآية الكريمة تتسع للأقوال الثلاثة . . وليس ما يمنعنا أن نختار ما رأى الزمخشرى وابن كثير ، لأن فيه معنى زائداً على القولين الآخرين ، فالخلافة فيه تخص آدم وأبناءه جميعا — ولأن نصوص القرآن فى القصة وغيرها تدل على أن عناصر تكوينه — عليه السلام — هى عناصر تكوينهم ، فاستعداده للاتصال بأفق الشياطين . هو استعدادهم ، وملكات التعلم التى بثت فيه ليعلم خصائص الأشياء كلها . هى مواهب بنيه ولا ريب . . وخصائص الروح الإلهى التى نفخها الله فى آدم فأكرمه بها هى خصائص الروح فى بنيه ، والله يقول: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ، وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (١) ﴾ فالتكريم فى قوله تعالى : « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ » يرجع إلى خصائص الروح التى تهب أصاحبها من الكمالات ما يكون به أهلا للتكرمة . . وفى معنى اجتماع آدم وبنيه على خصائص واحدة جاء قوله تعالى: « وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ (٢) » فإن حق المقام أن يقال : ولقد خلقنا آدم ثم صورناه . ثم قلنا للملائكة . . الخ . لأن خلقنا وتصويرنا إنما جاء بعد خلق أبينا آدم وتصويره وإسجاد الملائكة له ، لا قبله ، ولكنه عدل إلى إظهار الكلام فى صورة خطاب لنا ، ليقرر أن خلقه لآدم هو خلق لنا . وتصويره لآدم

---

(١) الاسراء : ٧٠ (٢) الأعراف : ١١

هو تصوير لنا .. وإذا كانت خصوصيات الامتياز — التى أهل بها للخلافة — دائرة بينه وبين بنيه ، كانت الخلافة تكليفا له ولبنيه ، ولا جرم . .

٢ — الخلافة عن من ؟

وللعلماء — فى ذلك — أيضا أقوال منها : أنها خلافة عن الملائكة ، أو عن الجن. أو عن الله تعالى ..

(أ) فروى الطبرى عن ابن عباس : أن أول من سكن الأرض الجن. فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء . وقتل بعضهم بعضا . فأخرجهم الله منها إلى جزائر البحور وقمم الجبال ، ثم خلق آدم فأسكنه إياها بعدهم ، فلذلك قال : « إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً » يخلفون الجن فيسكنونها ويعمرونها[1] فالرواية المعزوة إلى ابن عباس رضى الله عنه تدل على أن الخلافة فى الأرض هى عن الجن ... ثم ذكر الرأى الذى قال : إنها خلافة عن الله تعالى . .

(ب) ويقول القرطبى فى تفسيره : « إنه يخلف من كان قبله من الملائكة فى الأرض ، أو من كان قبله من غير الملائكة على ماروى » ، فهى عند القرطبى خلافة عن الملائكة أو عن الجن . .

(ج) وقال أبو السعود فى تفسيره : « المراد بالخلافة : إما الخلافة من جهته سبحانه فى إجراء أحكامه .. وإما الخلافة عمن كان فى الأرض قبل ذلك .

---

(١) تكملة الرواية المعزوة إلى ابن عباس هى : أن الجن حين أفسدوا وسفكوا الدماء ، أرسل الله عليهم إبليس فى جند من الملائكة فقاتلهم حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال . ولاندرى مدى صحة إسناد ذلك إلى ابن عباس رضى الله عنه . على أن أقوال ابن عباس إنما تتلقى بالتقدير والاعتبار فيما يخبر أنه سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو فهمه من نصوص القرآن والسنة ، أما مايعزى إليه من أخبار الغيب مما لم يرد فى كتاب الله أو نص ثابت عن المعصوم ، صلى الله عليه وسلم ، فلنا أن نشك فى نسبته إليه ، وأن نضيفه إلى جملة الاسرائيليات التى دسها علينا خبثاء اليهود :

(د) ويقول الفخر الرازى . إن الخلافة « إما خلافة عن الجن ، وإما خلافة عن الله »

(هـ) ويقول الزمخشرى : إن الخلافة إما عن الملائكة ، وإما عن الله تعالى

ولا يخرج ما فى سائر كتب التفسير القديمة المعتمدة على ذلك .. ومنها نرى أنهم يختلفون على الجن والملائكة ، ولا يختلفون عن أنها خلافة عن الله عز وجل

(و) وهناك من يقرأ ما يحكيه الله تعالى عن الملائكة من قولهم : « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ » فيذهب إلى أن آدم كان خليفة لأقوام سكنوا الأرض قبله ، كان دأبهم الإفساد فيها وسفك الدماء .. ويبنى رأيه على أن الملائكة — وهى ذوات نورانية لا لا تعرف الفساد ولا سفك الدماء — ما كانوا يقولون قولهم ذلك إلا لأنهم رأوا طرازاً من البشر عاشوا قبل آدم فى الأرض يمثلون تلك السيرة الفاسدة .. وهو قول لم نجده لأحد من قدامى المفسرين — فيما خلص إلينا من كتبهم وأقوالهم — وهو استخراج لا بأس به ، بل قد يكون أقرب إلى المعقول من الظن بأنها خلافة عن الجن ، إذ الجن لا دماء لها تسفك كالإنسان . ولكنه يصطدم بما يفيده ظاهر نصوص القرآن الكريم من أن آدم أبو البشر ، إذ ليس فى تلك النصوص ما يفيد بظاهره أن آدم عليه السلام — قد سبق ببشر مثله فى هذه الأرض ، بل كلها تشير إلى أنه بدء ظهور البشر ، ورأس الإنسانية القائمة الآن ، والله تعالى يقول للملائكة : « إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ » فهو إخبار باستحداث عنصر — أو كائن جديد فى هذه الأرض ... فالقول بهذا الرأى اجتهاد تحفه مزالق كثيرة ولا يستقيم إلا بتأويل كلام الله فى غير ضرورة ملجئة . وهو فى البحث العلمى : مذهب من يترك اليقين إلى الظن .. وفى الدين مذهب من لا يستبرىء لدينه وعرضه .

ولعل الذين ذهبوا إلى هذا الرأى استأنسوا له بما عثر عليه علماء الحفريات من جماجم وعظام لجنس من المخلوقات انقرض من مئات الألوف من السنين ، يظن أنه أصل الإنسان الحالى لبعض وجوه الشبه بينها وبينه ... وهو استئناس خاطىء ، فإن هذه المغريات ما تزال فى دور الظنون ، ولم تبلغ مرتبة العلم اليقينى بعد ، وما زال رجالها مجدين فى سد الثغرات القائمة ، واستكمال الحلقات المفقودة ، وليس من الدين ، ولا أصول البحث العلمى فى شىء أن ندع اليقين الذى تستقر عليه ضمائرنا وعقائدنا بكتاب الله . إلى فروض وظنـــون لا تورث سوى البلبلة والشك

(ز) وقد ذكر أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار — رحمه الله — فى كتابه قصص الأنبياء أنه : « قد وجد من البشر فى الأزمان الغابرة والحاضرة من يدعون أن عمران بلادهم أقدم من خلق آدم ، كأهل الهند ، وقد كانوا فى الزمان السابق يدعون أن آدم كان عبدا من عبيدهم ، هرب إلى الغرب بأولاده .. وإلى القول بوجود أوادم سوى آدم يشير المعرى بقوله :

جائز أن يكون آدم هذا   قبله آدم على إثر آدم(١)

وهو قول لم يورده الأستاذ إلا على سبيل استكمال عناصر البحث ، فهو رضى الله عنه أجل من أن يعول على أساطير القدامى ، وأوهام الشعراء

٣ — الخلافة عن الله

فإذا عرضنا تلك الأقوال ، رأينا مجىء آدم إلى الأرض ليعيش فيها بعد أقوام سبقوه ، أمرا عاديا ليس فيه ما يستحق أن ينوه الله بقدره ، ويعلنه إلى الملائكة فى معرض التبجيل والإشادة

---

(٤) قصص الأنبياء الشيخ عبد الوهاب النجار ص ١١ .

وقد نفهم أن يخاطب الله آدم بأنه جعله خليفة من قبله ، ليكون الخطاب توجيها إلى التأمل فى مصائر من سبق، تثبيتا للقلب ، وتحصيلا للعبرة .. أما أن يكون الخطاب للملائكة يخبرهم فيه بأنه سيخلق بشرا مكان بشر سبق ، فإن خلوه من مرامى العبرة والحكمة يصرف الذهن عن اتخاذه رأيا يحفل به .

هذا على افتراض أن ثمت بشرا سبقوا آدم ، فكيف والافتراض ساقط ، وفى الرأى ما قدمنا من ثغرات ؟ ... فإذا عرضنا للرأى الذى يقول : إنها خلافة عن الجن لم نجد فى نصوص الكتاب أو السنة الثابتة ما يشير إلى ذلك من قريب أو بعيد(١) .

على أن إخبار الملائكة بأنه سيخلق بشرا يخلفون الجن فى سكنى الأرض ، هو كإخبارهم بأنه سيخلق بشرا فى الأرض مكان بشر سبق ، فى خلوه من الحكمة ، وعدم جدارته بالاعتبار .

فإذا نظرنا إلى الرأى الذى يقول : إنها خلافة عن الملائكة ، برزت لنا نفس الاعتراضات التى تعترض خلافة الجن . . ومهما ننظر فى خصائص الملائكة وأعمالهم ، فإن المباينة بين أمرهم وأمر الإنسان لا يتصور منها أنه — فى أحسن حالاته — يؤدى الآن ما كان يؤديه الملائكة من قبله فى هذه الأرض . .

أما أنها خلافة عن الله ، فذلك ما نجد له وجوها من الاستدلال يطمئن اليها العقل منها : تنويه الله به ، فإنه سبحانه قد أعلنها ، ومهدلها فى الملأ الأعلى قبل إظهارها بقوله : « وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » أى سأجعل فى الأرض خليفة ، وإنما يكون ذلك حين الحفاوة بالأمور الجليلة والأقدار ذات الشأن .. وليس من ذلك فى شىء أن بشرا سيخلف بشرا فى هذه

---

(١) تناقش هذه الآراء لا لأنها جديرة بالمناقشة ، بل ليطمئن من يحسنون الظن بها إلى أننا اخترنا من دونها الخلافة عن الله عن تمحيص وموازنة.

الأرض أو خلقا سواه ، جنًّا أو غيره ، فإن العقل — على فرض جواز ذلك — لا يرى فى شيء منه أى ميزة تدعو للحفاوة بها والتمهيد لها قبل ظهورها على النحو الذى بينا ...

ومنها ما نلحظه فى دعوة الملائكة إلى مودة ذلك الخليفة ، والحفاوة به ، والسجود له سجود تحية وتكرمة . وهو أمر خطير لا نجد له حكمة ، إذا كان قد أريد لهذا الخليفة أن يكون خليفة لجن أو بشر أو نحوهما . . إنما تبدو الحكمة وتستقيم الدعوة حين نلحظ أن المحتفى به خليفة عن الله جل شأنه :

ذلك إلى أن هذا الخليفة قد نفخ الله فيه من روحه ، فصارت خصائص الروح قوام وجوده ، وجماع مواهبه .. وليس لله تعالى صورة حسية ، إنما هى الصفات ، قال الإمام النيسابورى فى تفسيره شارحا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : **أن الله خلق آدم على صورته**[1] » : « أى خلقه على صفته ، فأعطاه — على ضعفه — من كل صفة من صفات جماله وجلاله أنموذجا » وسيأتى مزيد بيان لهذا الحديث، إنما يعنينا منه فى هذا المقام تلك الصفات القدسية فى الإنسان ، فإن الذى يلحظها حين التحدث عن الخلافة إنما يلحظ النموذج الذى يقرر للبشر مكانه من الله ، وبالتالى مكانه من الخلافة عنه سبحانه ، وليس فى منطق تلك الملاحظة أى مكان للخلافة عن غيره جل شأنه . .

٤ — الخلافة وتوحيد الله وعبادته :

وإذا خلصنا إلى أن خلافة الإنسان هى خلافة عن الله تعالى ، فما عسى أن يكون موضوعها ؟ .. هل هو توحيد الله — عز وجل — مثلا ؟ . . أو هو عبادة الله ؟ . .

---

(١) رواه البخارى ومسلم

والذى يبدو بقليل من التأمل أن توحيد الله « حقيقة » من حقائق الكون القائمة ، أما الخلافة فمنهاج يؤديه المرء عن غيره نيابة عنه .

والفرق بين الحقيقة والمنهاج : أن الحقيقة بمثابة القاعدة التى يهتدى بأحكامها وأن المنهاج هو الخطة التى يهتدى فيها بأحكام القواعد ، ونور الحقائق .

توحيد الله حقيقة لابد أن ندركها لنصحح بها سلوكنا ونقوم بها أعمالنا فهى فى وجودنا الروحى :وجود القيم والمثل تقوم مقام الواحد نصف الاثنين فى وجودنا الاقتصادى ، حيث تقوم بها موازين الصفقات ، ونصحح عليها حساب الربح والخسارة ..

توحيد الله مَعلم معالم الكون ، به تعتدل الأوضاع ، وتتهيأ العقول للعمل ، وليس هو العمل ذاته . .

توحيد الله نور لحامل المنهاج •• وليس هو خطة ذلك المنهاج • •

وإذا كانت الخلافة ليست هى توحيد الله ، فهل هى عبادته سبحانه ؟••

إن مما لا شك فيه أن الإنسان خلق — أساسا — ليعبد الله ، وهو سبحانه يقول : « وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ». فإذا كانت العبادة هى الخلافة ، كان معنى الآية : أن الله تعالى لم يخلق الجن والإنس إلا ليخلفوه ، وهو معنى لا يستقيم مع عدة اعتبارات مسلمة . منها :

- أن وصف العبودية مطرد فى كل ذات، وليس كذلك وصف الخلافة، فكل خليفة عبدالله ، وليس كل عبد خليفة • • وقد يكون للرجل — على ما كان فى الماضى — عبيد كثيرون ، فيصطفى بعضهم ليؤدى عنه بعض مهماته ، أو ليخلفه فى بعض شأنه فى جهة من الجهات . . وليس من مستلزمات العبودية أن يجعلهم كلهم كذلك . .

- وقد يكون من التطبيق لما تقدم أن الله تعالى لم يقل فى الجن ، ولا

فى الملائكة : « انه نفخ فيهم من روحه » بل جعل ذلك خصوصية للإنسان وحده ، فلماذا أمده سبحانه بها ؟

إن العبادة ليست هى العلة التى اقتضت تأهيل الإنسان بتلك الخصوصية ، فإن الملائكة يعبدونه سبحانه بدون حاجة إليها ، وكذلك الجن .. إنما تظهر العلة إذا لاحظنا — إلى جانب ذلك — أن الله جل شأنه لم يقل فى الجن ولا فى الملائكة « انه جاعلهم خلفاء فى الارض » ، بل خص الإنسان وحده بذلك ، فمن خلال الارتباط الوثيق بين الخصوصيتين : خصوصية الروح ، وخصوصية الخلافة ، تنقدح العلة الصحيحة ، ويسوغ لنا أن نقول : إن تلك الروح بما لها من خصائص الإمداد والمعونة — كانت تأهيلا لابد منه للإنسان ، أو جهازا لا تؤدى مقاصد خلافته بدونه .. فتقرير الروح موهبة للخلافة ، مع إمكان تحقق العبادة بدونها ، يظهر الفاصل الذى يجعل الخلافة شيئا غير محض العبادة .

● على أن موضوع العبادة بمعناها الخاص فى الصلاة والصيام والحج .. إلخ لا يتصور فيه معنى الخلافة ، فلا يقال — مثلا — إن الصيام أو الصلاة خلافة عن الله فى أمر من الأمور . .

فإذا ذهبنا ننظر إلى العبادة فى أفق المعنى العام ، ألفيناها وجدانا صرفا جليلا يغمر مواهب الإنسان كافة : مواهبه فى الذوق ، والإحساس ، والإدراك ، والرغبة والاختيار .. وجدانا من الإعجاب بخالق الكون العظيم ، وتمجيده وتعظيمه ، وحبه ، والاحتياج إليه ، وخشيته ، والثقة به ، والركون — بل الفرار — إلى ساحته . . وجدانا من الثقافة الكونية يسطع على وعى المرء كله من التفكر فى آيات السموات والأرض ، وما للكائنات والنعم من دلالة على صفات القدرة ، والعلم ، والحكمة ، والهيمنة والإحاطة ، والكرم ، والود ، والبر ، والرحمة ، وغيرها من

صفات الجلال والجمال .. فإذا هو نابض فى وجوده كله ، من غير تقدير منه ، أو اختيار ، بتقديس الخالق جل شأنه ، وتسبيحه وتحميده ..

وإذا الوجدان نفسه آمر على وجود المرء وجوارحه ، فهى مقيدة به ، مرتهنة بأمره . . ذلك الوجدان الساطع ، الآمر النامر ، المنبعث من أعماق النفس تأثرا بروائع آثار الله فى الكائنات ، هو قيد عبودية الإنسان لله ، وحقيقة تلك العبودية ، ومعناها العام ... عبودية لا يفرضها قانون ، ولا يحمل عليها قسر أو قهر ، ولا يقبل فيها نفاق أو خداع ، ولا يتصور معها تثاقل أو إعراض ... هى وجدان جليل جميل ينبعث فى النفس لرؤية كل جميل .. فهل الوجدان خلافة عن الله ؟

٥ — كلنا خلفاء :

إن الخلافة وصف عام ، أو تكليف شمل البشر كافة .. فالناس جميعا يرثون خصائص آدم — عليه السلام — ما كان منها روحيا ، وما كان غير روحى ، لا فرق فى ذلك بين شعب وشعب ، ولا بين جنس وجنس ،

ولقد قدمنا الدلالة على ذلك من قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ، ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ، ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ (١) ﴾ فهو فى الحقيقة قد خلق آدم ، ثم صوره ، ثم أمر الملائكة أن يسجدوا له ، ولكنه أخرج القول على صورة خطاب لنا ليبين أن خلق آدم خلق لنا ، وتصويره لآدم تصوير لنا ، وإذاً فمهمات آدم المترتبة على ما سوى عليه من مواهب هى مهماتنا ، ومنها الخلافة ، على ما قدمنا ..

قال الإمام البيضاوى فى تفسير الخلافة : « إن هذه نعم تعم الناس كلهم ، فإن خلق آدم وإكرامه ، وتفضيله على الملائكة بأن أمرهم بالسجود له ، إنعام يعم ذريته »

---

(١) الأعراف : ١١

وقد يبدو أن ذلك التعميم مناقض لما قلنا فى الفقرة السابقة ـ فقرة العبادة ـ من « أن وصف العبودية مطرد فى كل ذات ، وليس كذلك وصف الخلافة .. فكل خليفة عبد ، وليس كل عبد خليفة » ..

والحق أنه لا تناقض ، فإنا إذا قلنا : « إن وصف العبودية مطرد فى كل ذات » إنما قصدنا كل ذات كونية تدخل فى عموم قوله تعالى : ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً[1] ﴾ ، سواء أكانت هذه الذات إنسية أو جنية ، أو ملائكية ، أو ذاتا مما استأثر الله تعالى بعلمه من دوننا .. وقد جاءت الخلافة تكليفا واردا على وصف العبودية خاصا بالبشر وحدهم من دون الجن والملائكة ، كما بينا فى الفقرة السابقة ، فكان كل خليفة عبدا ، ولم يكن كل عبد خليفة .

وإذا كان فى الناس من يسلك نهجا بعيدا عن سمت الخلافة ، فليس ذلك لأنه لم يؤهل لها ، ولم يكلف شيئا من تبعاتها ، بل لأنه جهل قدر نفسه ، وشرف تكليفه ومسئوليته ، فانسلخ مما آتاه الله ، ومال مع دواعى الحس إلى ما مال إليه ، على مثل ما تقرأ فى قوله سبحانه : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ ، إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ ، أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ[2] ﴾

---

(١) مريم : ٩٣ (٢) الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦

فالآية حين تضرب المثل للناس كافة ، إنما تدعوهم إلى ما فى أنفسهم من آيات الكرامة والمواهب ، حتى لا يكون حالهم من الهوان حال من انسلخ منها .. وعموم المثل يدل على عموم المواهب فى كافة البشر ، وهو آية الترشيح للخلافة على ما قررنا فى غير موضع .

ولما يريد الله للبشر من تمام الكرامة ، وإقامتهم دوما على سمت الخلافة ، كان يستخلف فى عباده — أى فى هؤلاء الخلفاء — من يدعوهم إلى الله ، ويقيم بينهم نموذج الخلافة التى نيطت بهم ، على مثل ما نقرأ فى قوله تعالى : ﴿ يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ ، فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ[1] ﴾ ولعل منه قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ فركون بعض الناس أو كثير منهم إلى أهوائهم أنساهم أنفسهم وما أريد لهم من الخير ، فأقام الله فيهم — رحمة منه — من يدعوهم إلى ما نسوه ويذكرهم إياه. فكان ثم إلى جانب الخلافة العامة خلافة خاصة ..

(١) البقرة : ١٤٣   (٢) ص : ٢٦

ثانيا : ظنون حول الخلافة

١ — الخلافة وسنن الطبيعة :

إذا كانت الخلافة ليست هي عبادة الله ، ولا توحيده ، فأى شيء تكون ؟

ولعل مما يمهد للإجابة عن ذلك ، أن نستبعد ما يتوهمه البعض من أن رسالة الإنسان في الحياة هي أن يسخر قوانين الطبيعة .... ويهيمن عليها .. ويفرض عليها مشيئته .. ويخضع جبروتها لإرادته .. إلى آخر مالديهم من عبارات جوفاء، مبعثها غرور الإنسان وجهله بحقيقة نفسه ، وبما حوله ، فإن الذى نراه وتثبته التجربة ويقرره العقل ، أن الطبيعة مسخرة بالخالق سبحانه ، فهى قد نسقت بحيث تكون ملائمة لمصلحة الإنسان ، مطوعة لمقاصده ، فالإنسان لم يسخر شيئا حين أسقط له شجر الغابة ثمارا فأكل .. ولا حين رأى ماء النهر أو ماء المطر متجمعا فى مكان فشرب .. ولا حين رأى الحديد فانتفع به ..... نعم ، ولم يسخر الليل حين انتفع بظلامه ، فسكن فيه بدنه ، وعقله ، وعصبه ، ولم يسخر الشمس حين انتفع بمواهب حرارتها وضوئها ، ولم يسخر الماء حين رأى بعض الأخشاب الجافة طافية عليه فركبها ، وهذبها زوارق وسفنا .. ولم يسخر الهواء حين رآه يميل الأشجار ، ويدفع الأشياء ، فعرض له بشراع سفينته .. إنه لم يدخل شيئا على طبيعة الماء والهواء ليطوعه لمشيئته ، إنما انتفع بالطبيعة على ما وجدها عليه ... إن قوانين الطبيعة لم يخترعها أحد من البشر لأنها فطرة الله منذ بدء الخليقة ، وكل عمل الإنسان فيها أنه اكتشفها ، أو يكتشفها فيسهل عليه الانتفاع بها .. وقد قرر القرآن تلك البديهية الشاخصة لنا فى كل وجه بمثل قوله تعالى . ﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ

الأَنْهَارَ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ، وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا[1] ﴾

فالكائنات بطبيعتها مذللة مسخرة للإنسان ، وما عليه إلا أن يعرف كيف ينتفع بها ، أو يعرف القانون الذي تنقاد به منفعتها له .. وعلى قدر ما يعرف أو يكشف من تلك القوانين ، تتسع دائرة انتفاعه بما أعد الله له . . وبهذا التقرير يزول وهم من يخيل إليه أن الإنسان جاء فقهر الطبيعة بجبروته ، وأخضعها لمشيئته .... إن الإنسان لم يسخر شيئا ، إنما هو منتفع بما هو مسخر له . .

٢ — هل نهج الخلافة تكرار لقوانين الطبيعة ؟

هذا معنى يجب تقريره لننفي عن الأشياء شوائب الوهم والغرور ، فنبصرها نقية على حقيقتها .. وثمت حقيقة أخرى قد يتحدد بها كنه عملنا في الخلافة ؛ ذلك أن معنى أن الطبيعة مسخرة لنا ، أنها محكومة بمجموعة دقيقة من النواميس أو القوانين التي تنظمها وتدبر أمرها ، على ما فيه المصلحة : فالمعادن تتكون في الأرض بقانون ، بل أن لكل معدن قانونه الخاص الذي يؤلف له ذراته وخصائصه على ما يريد ، فلا يكون إلا ما أراد ، فقانون الحديد — مثلا — لا ينتج إلا الحديد ، ولا ينتج رصاصا ، وقانون الرصاص لا ينتج نحاسا البتة .. وهكذا . . والنبات يتغذى من الأرض بقانون ، بل إن لكل صنف — فاكهة كان ، أو حبا ، أو خضرا — قانونه الخاص الذي يتغذى به ، بل إن لكل لون من كل صنف قانونه الخاص الذي يستصفى له من عناصر الأرض نسبته الضرورية لتميزه عن غيره بطعمه ، ولونه ، وخصائصه : ﴿ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ، وَنُفَضِّلُ

---

(١) إبراهيم: ٣٢ ، ٣٣ ؛ ٣٤ .

بعضها على بعض فى الأكل ﴾(١) والكواكب تتجاذب ، ويجرى كل منها فى فلكه وحول نفسه بقانون.. وتنشأ السحب وينزل المطر ، وتجرى الرياح ، وتسبح الطير فى الهواء وتتكاثر الكائنات وتتوالد ، كل ذلك وغيره إنما يحدث بقوانين مفصلة على علم الله : ﴿ وكل شىء عنده بمقدار ﴾ ، فلا يحدث شىء جزافا بتة ، فقد برأ الله كل شىء على قالبه ونظام خلقته المقدر له ، ثم سلكه فى هداية ناموسه التى تطوعه لوظيفته ، فلا ينحرف عنها أو يتخلف .. ﴿ أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ﴾ .

ذلك عمل سنن الله فى الكون الطبيعى عامة ، وفى الأرض خاصة ، فما عمل الخلافة فى ذلك ؟ ..

إن سنن الله تقوم له سبحانه فى عالم الطبيعة بما يريد . وليس مما يقبله العقل أو الواقع أن يكون عمل الخلافة تكراراً لعمل هذه السنن.. وإذاً فلا بد أن يكون للخلافة عمل غير قوانين الطبيعة ..أى أن الله تعالى إذ قدر للإنسان أن يجعله خليفة فى الأرض أراد له مهمة تختلف فى كنهها عن المهمة التى تدور عليها السنن فى الكون الحسى .

٣ — الارادة بين نهج الخلافة وقوانين الطبيعة :

ومادمنا بصدد التفرقة بين الخلافة وعمل الطبيعة ، فلنذكر فى هذا المقام فرقاً آخر غير ما تقدم ، ذلك أن الطبيعة لا اختيار لها فى الانفلات من سنن الله ، أى أنها لم توهب موهبة الإرادة التى تجعل لها الاختيار فى موافقة نواميس الله أو مخالفتها ، فهى منقمعة فى سطوة تلك النواميس لا تستطيع لها خلافا : ﴿ لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار — وكل فى فلك يسبحون (٢) » .. أما عمل الإنسان فى الخلافة فهو إرادى لا غريزى

(١) الرعد : ٤ (٢) يس : ٤٠

على ما نشاهد من أمرنا فى مخالفته أحكام الله، واستبدال مثل السوء والفساد بمثل الخير والحق التى أمرنا بتحقيقها ..فلو كان أمرنا فى إمضاء أحكام الله موكولا إلى غريزة من الغرائز أوسنة من السنن لتولت السنن سياقنا إلى تحقيق ما هو مطلوب ، دون تدبر أو اختيار ، على مثال ما تساق شجرة الورد ، ونحلة العسل ـ مثلا ـ كل بسنتها : هذه تظهر عبيرها بمحض السنة ولا اختيار لها ، وتلك ترسل رحيقها بمحض السنة أيضا ولا اختيار لها فى شىء ، وقد أشار الله تعالى إلى هـذا المعنى بقوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً ، أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (١) ﴾ وذلك بأن يخلق فيهم جميعا استعداداً غريزيّاً — مثلا — ينقادون به قسرا إلى الإيمان ، قال الزمخشرى فى تفسير تلك الآية : « هو القادر على أن يفعل فى قلوبهم ما يضطرون عنده إلى الإيمان » .

ذلك فرق يجب أن نلحظه ، فالخليفة مريد ، والطبيعة لا إرادة لها . .

٤ — هل الخلافة هى الانتفاع بثروات الطبيعة ؟ ..

وإذاً ، فما عسى أن يكون دور الإنسان فى تلك الخلافة ؟ ..

أهو الأكل والشرب ، وما إلى الأكل والشرب من ضروب الكد للانتفاع بثروات الطبيعة ؟ . .

إن الواضح أن الأكل والشراب نهج سلبى لا يتصور العقل أن يكون مقصدا إيجابيا اسند إلى الإنسان تحقيقه ، وقد فتح الإنسان عينيه لأول مرة على الغابة فوجد ثمارها فأكل ، ووجد الغدير فشرب ، ولم يكن فى ذلك أى مقصد إيجابى عمرانى يمكن أن يكون هو الخلافة المسندة إلى الإنسان .

حقا إنه تقدم فى كشف قوانين الطبيعة فى السماء والأرض ، فزرع ، وبنى

---

(١) يونس : ٩٩

وصنع ، واخترع ، ولكن هل يخرج ذلك عن كونه « توسيعا » لدائرة انتفاعه وانتقالا من حال البداءة ، والسذاجة إلى المدى الذى يرضى رغباته وشهواته فى تنويع ما يأكل ويشرب ، ويلبس ويسكن ؟ . .

ولا يسوغ فى العقل ولا فى حكمة الله أن يكون الإنسان ذو المواهب والملكات العظيمة قد خلق لا لشىء إلا لينتفع بالطبيعة على نحو من الأنحاء بدائى ساذج ، أو حضرى مترف معقد .. فلا بد من الاستشراف إلى الآفاق التى تبدو فيه الأمور للفكر مقدورة بميزان الحكمة الإلهية لتتبين حكمة وجود الإنسان مقدورة بقدر مواهبه ذات الإلهامات العالية .

إن مبدأ تقرير دور إيجابى يناط بالإنسان أمر بديهى يوجبه النظر إلى مواهبه ، كما يوجبه النظر من أفق حكمة الخالق ، وهو إلى ذلك مبدأ يعترف بعلو قدر الإنسان ، فإن افتراضه مسيبا من كل تكليف — على ما يفترضه منطق الحضارة القائمة — هو افتراض لسقوط منزلته ، واعتباره هملا غير مسئول عن قيمة ما عالية ... فإذا كان هذا الدور هو خلافة عن الله تعالى فهو إعلان لما أريد للإنسان من كرامة عظمى . .

ذلك كله إلى أن الأكل والشرب ليس خلافة عن الله بأى وجه أو على أى حال ..

ثالثا: نحو أفق الروح

١ — الخليفة بين الحس والروح

وإذا لم تكن الخلافة شيئا مما تقدم، فما عساها أن تكون؟ ...

إن ذلك يدعونا أن نلتمس مفتاح موضوعنا في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾، فالآية تتضمن النص على « خليفة » .. وأن هذا الخليفة مجاله الأرض .. ونجد القرآن يزيد هذا الخليفة بيانا ووضوحا بقوله: (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ .. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ .. وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي، فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)، ففي تلك الآية تحليل لتقويم ذلك الخليفة ..

(أ) فهو بشر من طين، مكتمل نواميس البشرية .. وقد أسلفنا في فصل « عناصر التكوين » بيان ذلك.

(ب) وهو « روح من الله » على ما في قوله تعالى: (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي)، والروح من أمر ربي لا علم لأحد بكنهه إلا له سبحانه، ولكنا استخلصنا عبارات مما جاء في القرآن الكريم عن آثار ذلك الروح في حياة الإنسان .. وقدمنا ذلك في فصل « عناصر التكوين » عند بيان المراد بالروح، وفي فصل « أفق الروح » وفي مواطن أخرى، ومنه نتبين أن هذا الروح حقيقة علوية تتضمن من الخصائص ما يرشح الإنسان لإظهار صفات الحق، والخير، والحكمة، والكرم، والود، والرحمة، والبر، ونحوها.

(ج) وتتضمن الآية الكريمة — أيضا — أن الكائن الحسي الذي سماه القرآن « بشرا من طين » إن هو إلا « ظرف » للروح العلوي، وذلك مقرر في قوله: ونفخت فيه من روحي ..

وإذاً ، يكون « الظرف » دوره فى الحياة ، وللروح دوره .. ومن البديهى أن يكون دور الروح مخالفا فى كنهه كل المخالفة لدور الظرف الذى هو الكائن البشرى ... وهى ظرفية لا يعلم كنهها إلا الله .

* ولكن كيف يتصل الروح بالأرض — بظاهر الحياة — لينشىء فيها دوره ؛ ويترك فيها أثره ؟ . .

إن الروح أمر من صفات الحق والخير التى قدمنا . . أى أنه طاقة مجردة من الحس ، وحقائق عقلية ليس لها قوام مادى ، فكيف يتسنى له أن يتصل بظاهر الحياة ، وهو أمر وصفى داخل قالب من الحس ؟ . . ولسنا نجد فى ذلك ما يدعو إلى كد الذهن ، فالمعهود والمشاهد أن الله قد خلق هذا القالب أو هذا البدن على أن يكون له جوارح : يد .. ورجل .. وعين .. وحواس .. ومدارك .. فتصله الحواس والمدارك بالخارج . . وتنفذ له اليد والرجل وسائر الجوارح ما يريد ، على مثل ما يقول تعالى : (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ) [1] .

فدور الجسم ـ الكائن البشرى ـ بالنسبة الروح ، هو دور « الوسيلة » التى يحقق بها الروح فى المجتمع ما يشاء من مناهجه .. مناهج الحق ، والخير ، والرحمة ، والبر

* وقد قدمنا — فى فصل أفق المادة وغيره — أن حلول الروح القدسى بالبشر اقتضى أن يكون لمثل الإنسان خاصية غير خاصية الإدراك الحسى ، بها يدرك أن الكائنات خلق الله تعالى ، وهى التى سميناها « خاصية الخالقية » وقدمنا إلى ذلك أن الإدراك الحسى خاص بإدراك مقررات الطبيعة وقوانينها ، وطاقاتها . . وأن الإدراك الروحى الذى مفتاحه خاصية الخالقية يفضى إلى إدراك ما فى الكون من آثار صفات الخالق تعالى : صفات القدرة : والعلم ، والهيمنة ، والإحاطة ، والحكمة ،

---

(١) التوبة : ١٤

والكرم ، والود ، والرحمة ، والبر وغيرها .. فيكون للإنسان بهذا «وعاء» من العلم :

العلم الطبيعي

والعلم بالله

وبذلك يتحدد الفارق بين خصائص بشرية الإنسان ، وخصائص الروح فيه .. وتتبين معالم التقويم الذي تضمنه قول الله تعالى :(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)، فجماع هذا التقويم أنه روح منه تعالى يستكن في كيان حسي من طينة هذه الأرض .

٢ — هل حقق الانسان في نفسه تقويم « الخليفة » ؟ ..

للبشرية في الإنسان مطالبها التي يقوم بها أمرها .. وللروح مطالبه . .

ومطالب البشرية هي مطالب البدن : الطعام ، والشراب ، والملبس ، والمسكن .. وأما الروح فلا أرب له في طعام أو شراب أو نحوه من ضرورات الحس . . مطلبه الوحيد الذي يؤتي به ثمره الذي يهفو إليه في كل حال ، هو معرفة الله عز وجل ، على ما قدمنا في كثير من المواطن . .

ومن المعروف المسلم بحكم الواقع ، أن مطالب البدن تقع تحت حواس الإنسان مباشرة في متناول مداركه الحسية ، فيكون اشتغال وعيه بها أمرا طبيعيا دون إعمال إرادة بحكم العادة . . وإذا كان من شأن الناس التنافس على تلك المطالب ، فإن ذلك يثير في النفس من دواعي الحرص والاهتمام ما يشغل وعي المرء ويستوعب جهده .

ومن المسلم — أيضا — في مقابل ما قدمنا أن مطالب الروح ليست حسية

أى لا تقع عليها حواس الإنسان مباشرة ، إنما هى حقائق «معنوية» تدرك بالفكر فى نفس الكائنات التى تقع عليها الحواس ، ومعناه : أن إدراك الإنسان للمحسات يسبق إدراكه لدلالتها المعنوية .. وأن اشتغاله بالمحسات قد يركز انتباهه فيماله فيها من مطالب حسية ، فلا يتسنى للإدراك المعنوى أن يحقق رؤيته ويثبتها ، فيظل الروح محروما حظه الذى يزدهر به .. إلا إذا كان الشخص من ذوى الفطر اليقظة والبصائر النافذة ، فإن ذلك لا يدع للحس أن يستأثر باهتمامه وإرادته ، إذ أن فكره المتألق ينعقد دائما على رؤية الكائنات فى إطار نسبتها إلى الله ، أى فى إطار نسبة المخلوق إلى الخالق ، وهو إطار يطالع فيه الفكر معالم الصنع الدالة على معانى صفات الصانع تعالى ... وبهذا يتاح لهذا الطراز العالى من الرجال أن يحقق رؤيته الفكرية المعنوية كما يحقق رؤيته الحسية ، ويوفر للروح المعنوى معرفة الله ، كالبدن حظه الموفر من مطالبه

وهذا باب له حقائقه الدقيقة التى يطول تقريرها ، ولسنا بصددها ، والذى يعنينا أن أكثر الناس تغلب عليهم اهتمامات الحس وشواغل المعاش ، فلا يتاح للرؤية الفكرية أن تؤدى دورها . وبهذا لا يحققون فى أنفسهم تقويم « الخليفة » .. وأن تحرير الإرادة من غلبة الحس وأهوائه هو مناط همة الإنسان فى الرؤية الفكرية ، ومن ثم هو مناط الإنسان فى تحقيق ذلك التقويم .. ومن هنا قلنا منذ قريب — فى فقرة ظنون حول الخلافة — إن عمل الإنسان فى الخلافة إرادى لا غريزى ، بخلاف الطبيعة فإن عملها غريزى لا إرادى ، ولو كان شأننا فى الخلافة غريزيا لساقتنا الغريزة إلى مراد الله دون تدبر منا أو اختيار ، على مثل ما يقول تعالى: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً)، فالإنسان مريد ، والطبيعة لا إرادة لها ..

وقد قدمنا أن نفخ الروح فى بشرية الإنسان اقتضى أن يكون لعقله خاصية تدرك فى الكائنات دلالتها على معانى صفات الخالق تعالى ... وأن معانى تلك الصفات هى المراد الضرورى للروح ... وإذا ، فالإنسان مؤهل بخاصيتين :

خاصية الفكر الموكلة بإدراك ما فى آيات الكائنات من العبر والمعارف الدالة على معانى صفات الخالق تعالى .

وخاصية الروح التى لا يزدهر أمرها ، ولا يتدفق نورها إلا بزادها الضرورى من معانى صفات الخالق تعالى .. وما على الإنسان إلا أن يؤدى ما عليه من حق التفكر فى آيات الخلق ، فإذا معالم الجلال والجمال تبدو لفكره بآثار القدرة ، والعلم ، والحكمة ، والحق ، والمجد ، والعظمة ، والإحسان ، والعدل ، والكرم ، والود ، والبر ، والخير ، وغيرها .. فإذا أدرك الفكر منها ما أدرك ، واحتاز منها ما احتاز، تلقاها الروح فى شوق ونهمة .

وعلينا أن نذكر أن الصفات الواردة ليست صفات الله ، إنما هى.. «آثار» صفات الله ، وقد حرصنا على ذكر ذلك وتكريره ، فإن صفات الله عز وجل لا يعلمها إلا هو تعالى ، وقد أمرنا القرآن أن ننظر فى آثار الصفات لا فى الصفات بمثل قوله :(فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ)، وعلى ذلك فالذى يدركه الفكر ويحتازه ويستنزله من ملكوت الآيات هو « آثار » صفات الخالق تعالى ، لا صفاته ذاتها .

ومرادنا أن الآثار الواردة هى آثار صفات الله.. فانظر ماذا يتضمن الأثر من معنى الصفات وبركتها وثمرها ،

أما الروح فمعروف أنه روح من أمر الله ... فانظر ماذا يتضمن من حقائق علوية أهلت الإنسان لأن تسجد له بها الملائكة .

وكلاهما ليس من طبيعة عالم الحس ، ولا يمت إلى مادة أرضنا هذه بصلة فهو غير مهيأ لأن يستمد منها أو ينمو بها بحال . . وكلاهما قدسى علوى بالنسبة إلى الله ... يلتقيان على قدر فى هيكل من طين ، التقاء السالب بالموجب ، فما أن يلتقيا حتى تجيش حقائق الروح ، وتمور خصائص الصفات ، ويتفاعل كل منهما

مع الآخر .. ويأتلف من تفاعلهما فى ضمير الإنسان « كيان علوى » ليس من لحم ودم ، إنما هو نموذج من آثار الله جل وعلا . وهذا النموذج المضىء العلوى هو الذى عناه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « ان الله خلق ادم على صورته »[1]

ومن حق المقام أن نذكر أن العلماء اختلفوا فى ضمير الهاء فى « صورته » : على من يعود ؟ . هل يعود هذا الضمير على آدم ، فيكون معنى الحديث : أن الله خالق آدم على صورته البشرية المعروفة ، وقالبه الحسى المعهود ؟ . . أو يعود الضمير على الله ، فيكون المعنى : إن الله خلق آدم على مثال صفاته القدسية ، ويكون المراد بآدم هو كيانه الروحى لا الحسى ؟

ونص عبارة الحديث يحتمل الرأيين — كما هو واضح — ولكن الحديث جاء برواية أخرى هى : « ان الله خلق ادم على صورة الرحمن » ، فكان ذلك مؤيدا مرجحا للرأى الثانى ؛ وقد ذكر الحافظ ابن حجر فى الفتح فى تقرير عودة الضمير على الله تعالى : « أن اسحق بن راهويه كان يقول : صح أن الله خلق آدم على صورة الرحمن .. وأن الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه كان يقول : هذا حديث صحيح » . وقد علق الحافظ ابن حجر على ذلك بقوله : « والمراد بالصورة الصفة ، والمعنى أن الله خلقه على صفته ، من العلم ، والحياة ، والسمع ، والبصر وغير ذلك ، وإن كانت صفات الله تعالى لا يشبهها شىء ...[2]

هذا . وقد قال النيسابورى فى شرح قوله : « إن الله خلق ادم على صورته : أى خلقه على صفته ، فأعطاه — على ضعفه — من كل صفة من صفات جماله وجلاله أنموذجا » . . وذلك ضمن تفسيره لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ

---

(١) رواه البخارى ومسلم

(٢) هذا التعليق بصفحة ٢٣٩ جـ ١٢ من فتح البارى كتاب الاستئذان . . أما بقية ما أورده الحافظ فنى ص ١٠٩ جـ ٦ من الفتح ، كتاب العتق طبعة الحلبى .

يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا[١] ﴾ . ونخرج من هذا بأن الله تعالى قدر للإنسان من الخصائص والملكات ، والمواهب ، ما لو عنى به ، ووجهه إلى تحقيق مهمته ؛ لاستطاع أن يحقق وجودا معنويا ذا خصائص ربانية نفيسة من آثار صفات الله تعالى.

* ولعل ما قدمنا يمثل الخطوط الجامعة لشخصية الخليفة الذى يتولى عن الله خلافته فى الأرض ، فإن أحدنا إذا أراد أن يستخلف على بعض مصالحه ، أو يسند إلى غيره بعض عمله ، فإنه يتجه بطبيعة الحال إلى من يكون أقرب شبها بصفاته وخصائص تفكيره وتصرفه ، حتى يتاح للعمل أن يؤدى بالأسلوب وعلى الوجه الذى يرضاه صاحبه ، فلا جرم — وقد أراد الله أن تكون الخلافة لآدم — أن يؤهله بالخصائص ، والملكات التى يجتمع له بها وجود ربانى أو مثال مكتمل من معانى صفاته تعالى ، فيكون وجدانه هو أثر تلك الصفات فيه ، وتكون مشيئته هى إملاء تلك الصفات عليه ؛ فلا يشاء الإنسان إلا ما يشاء الله ، فتؤدى الخلافة بذلك عملا ومقصدا ؛ على أتم ما يريد الله من سداد وحكمة .

---

(١) جـ١ ص ٢٠١ تفسير النيسابورى على هامش تفسير الطبرى .

رابعاً: ما الخلافة؟

١ — فى تحليل الكيان الربانى :

(أ) عرفنا أن هذا « الكيان الربانى » ليس كيانا من لحم ودم ، ولا شيئاً من الحس أيا كان ؛ إنما هو حصيلة من المعارف تتضمن أثمن ما يبلغه إدراكنا فى هذا الكون من معانى صفات الله جل شأنه . . والإنسان حين يجيل فكره فى قدس هذه الحقائق ، يكون أحرص ما يكون على حيازتها ، واستصفائها وشد أواصره عليها . . وبما أنها حقائق معنوية ، فليس له ما يحوزها فيه ويعقده عليها سوى قلبه . . ومن هنا سميت تلك الحصيلة النفيسة « عقيدة » قال فى المصباح المنير : « اعتقد كذا ، عقد عليه القلب والضمير ، حتى قيل: العقيدة ما يدين الإنسان به » . . وعليه فعقيدة أى إنسان فى الله هى حظه من معرفته به ، أى العلم بصفاته تعالى .

(ب) وبما أن هذه الحصيلة التى حيزت فى الضمير هى حقائق شهدها الفكر عيانا فى ملكوت الكائنات، وتتضمن معانى صفات الله تعالى ، فإنها تحل من القلب محل التصديق المطلق ، وذلك هو حقيقة « الإيمان بالله » . فليس الإيمان أمرا تلقينيا ، ولا قضية مستنبطة . إنما هو « تسليم » بما يشهد الفكر فى آيات الكائنات وما يشهد الضمير فى حناياه من صورة العالم الأكبر ، كما يسلم المرء بما تشهد له عينه السليمة عن قرب من شخوص الأشياء المحسة المادية ، بل أشد وأوثق .

(ج) وبما أن تلك الصفات العلوية التى ترسبت فى الضمير ، هى صفات الحكمة، والكرم والإحسان والود ، والبر ، والرحمة ، وغيرها ، وبما أن المفترض أن فكر الإنسان لا يفتر عن شهود معالمها فى آيات الكون ، فإن حظوظه منها لا تفتأ تتوالى عليه فى مدد متصل يؤكد بعضه بعضا حتى ليؤلف فى الضمير بناء

من قيم البر والود والرحمة ، ومبادىء الحق والخير والعدل ، هو حقيقة « إنسانية الإنسان » . . ولا معنى لإنسانية الإنسان إلا أنها مقومات هذا البناء .

ومبادىء هذا البناء وحقائقه تقوم في الضمير مقام القانون الحاسم ، أو السنة ذات الأحكام النافذة ، إذ تفرض نفسها على إرادة صاحبها لتحقيق مفهومها بين أفراد الإنسانية كافة ، في كل مجال وكل بيئة ، بلا تفريق بين قريب وبعيد ، أو بين جنس وجنس .. أو بين لون ولون ؛ منصفا من نفسه بادىء بدء في كل حال .

(د) وإذا ، فهذا البناء النفسي الباطن ، أو هذا الكيان الرباني ، هو لب حقيقة الإنسان وجوهره ، إذ هو معدن العلم فيه ، ومناط التمييز ، وكل صفة حسنة ؛ وما عداه في الإنسان فهو مجرد وعاء له ... واللغة تسمي ذلك الجوهر أو تلك الحقيقة : « القلب » ، إذ تقول : « إن قلب كل شيء هو محض لبه » ، ويقول الراغب الأصفهاني في مفردات القرآن : « ويعبر بالقلب عن المعاني التي تختص به من الروح والعلم والشجاعة وغير ذلك » ؛ ولذا نجد الإسلام لا ينظر في وزن ما يصدر عن المرء من قول وفعل إلا إلى هذا القلب ، على ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله لا ينظر الى صوركم وأموالكم ، ولكن انما ينظر الى قلوبكم واعمالكم [1] » .

٢ — مدخل الى الخلافة

وإذا ذكرنا في تحليل الكيان الرباني أنه هو « الإيمان » . . وأنه في أحد الاعتبارات هو « العقيدة » ، وأنه في اعتبار آخر هو « إنسانية » الإنسان .. وأنه في تقدير حقيقة الإنسان هو « القلب » ، إذا ذكرنا ذلك لا يفوتنا أن ننظر في هذا الكيان إلى حقيقتين أساسيتين .

---

(١) رواه مسلم وابن ماجه

الحقيقة الاولى : أن قوامه ، أو « مادته » التى يقوم بها بناؤه هى العلم بالله

الحقيقة الثانية : أن هذا الكيان — باعتباره أنموذجا مكتملا من صفات الله — هو الوجود الحق لمسمى « الخليفة » .

هذا والحقيقة الاولى _ أى العلم بالله _ تقتضينا بعض الإيضاح والتعليق ؛ فهى معارف كونية تتضمن حقائق الحكمة ، والعدل، والحق، والخير ، والإحسان ، والبر والرحمة ، والود ، والعلم ، وغيرها ... ونلاحظ أن هذه الحقائق أسمى ما يتواصى به الحكماء فى رفع قواعد الأمم ، وتخطيط أصول الحضارات . . وبما أنها من أمر الله — على ما عرفنا — والله تعالى لم يأمر الإنسان فى عصر من العصور بغيرها ، فإن ما تتضمن من حقائق ، هو ، ركائز خلافة الإنسان فى الأرض.

والذى يعنينا أن العلم بالله — من هذه الوجهة — ذو وصف تقريرى يجد به الخليفة منهج خلافته شاخصا فى ضميره .. وبدون هذا العلم لا تتحقق الخلافة بتة ، إذ هو التأهيل الفطرى الثقافى الوحيد لها .

أما الحقيقة الثانية ، وهى الوجود الحق لمسمى « الخليفة » ، فإن هذا الوجود باعتباره أنموذجا مكتملا من الحقائق والصفات العلوية ، يتقرر له من الخصائص الإيجابية نفس الخصائص التى تتضمنها تلك الصفات العلوية ، إذ هى عماده وحقيقته وقد قلنا فى تحليل تلك الحقائق والصفات إنها هى حصيلة معرفة الإنسان بالله . . وأنها هى «العقيدة» ، وأنها هى « الإيمان» ، فلنعلم أن للايمان خصائصه وآثاره فى الإيجاب والإبداع ، تضمنها قول الله جل شأنه: ﴿ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ ، وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ

---

(١) الحجرات : ٧

والعِصْيَانَ أولئكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ، فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً . . الآية[1] ﴾
ففى هذا النص الكريم من حقائق الإيجاب ما يأتى :

(أ) أن حب الحق وزينته فى القلب معناه نشوء أذواق جديدة تتحول بضمير صاحبها من حب العرض الأدنى إلى ما لحقائق الإيمان وقيمه من نفاسة وبهجة . . وقد وصف القرآن الكريم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم كانوا : ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً ﴾ . ومن كان الإيمان زينة قلبه ، فلن تجد لهمته دون عرش الله مبتغى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ[1] ﴾ .

أما المال وما إليه من عرض الدنيا فمكانه فى حياة المؤمنين هو مكان العدة التى ينجزون بها ما استطاعوا لنفع عباد الله ونصر دينه . لا للترف وللمكاثرة فى الجمع وشهوات الظهور والغرور . .

(ب) إن حب الايمان وزينته يقوم فى النفس بصيرة أو حاسة تبصر الحق فى أقوال الناس وأفعالهم ، ولذا تراه يحب أهل الحق . ويألف صحبتهم ، وينفر من أهل الباطل ويجتنب عشرتهم .

* ويقابل ذلك أن حب الدنيا وزينتها يقوم فى نفوس ذويها معيارا يقيس الناسَ بحسب مالهم من رفعة المنصب ، ووفرة الثراء ، وشرف[2] النسب ، وشارات الجاه . ونحوها من مصطلحات العلو الاجتماعى . . ويزدرى من عدا أولئك ، ولو كانوا من أرباب الإيمان ، ويقرر القرآن ذلك المعيار الفاسد : بقوله : ﴿ زُيِّنَ لِلذينَ كَفَرُوا الحياةُ الدُّنيا وَيَسْخَرونَ مِنَ الذِينَ آمَنُوا.. الآية ،

(١) الحجرات : ٨
(٢) يراد بشرف النسب — هنا — علوه الحسى المستمد من قوة العشيرة ، أو مواريث الآباء ، أو ذكريات سيادة بادت ونحوها ، لا علوه الأدبى المستمد من فضائل النفس وجلائل الاعمال وشرف المبادىء والقيم .

ولـكنه يظهر فساده فى ميزان الحقيقة بقوله : ﴿ وَالذينَ اتَّقَوْا فَوقَهُمْ يَومَ القِيَامَةِ ﴾(١) .

● فثمت زينتان :

× زينة الدنيا فى قلوب أهلها . . وهى زينة تتعلق فيها الهمة بأمور حسية بحتة كالتى ذكرنا .

× وزينة الإيمان فى قلوب أهله . . وهى زينة تتعلق فيها الهمة بمعقولات معنوية ، هى التى قال فيها القرآن : إنها فضل الله .

وأهل زينة الدنيا ليست لهم الحاسة التى تبصر المعقولات ، ولذلك لا تعلق لهم بها ، ولا تفاعل ، ولا تعاطف لهم إلا مع قيم الحس ، ولا مرجع لهم فى قياس أقدار الرجال إلا ما تقرر لهم مقاييس عرفهم الحسى ، وقديما قال أهل الطائف لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما دعاهم إلى القرآن : (لَوْلاَ نُزِّلَ هَـذَا الْـقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّـنَ الْـقَرْيَتَـيْنِ عَظِيمٌ)(٢) وهم يريدون بالقريتين : مكة والطائف

وحين نقرأ فى القرآن وصف الذين أعرضوا عن رسالات السماء بأنهم : (صُمٌّ بُـكْمٌ عُـمْى) فالمراد هو فقدانهم تلك الحواس الباطنة التى لها خاصية إبصار المعنويات وإدراكها . .

ومرادنا أن « حب الإيمان » فى القلب فرقان يفرق به الإنسان بين المحسوسات الباطلة والمعقولات الشريفة : فيقوم ذوقا عاليا فى الضمير يتحول به من

---

(١) البقرة : ٢١٢ (٢) الزخرف : ٣١

جب العرض الأدنى إلى ما الحقائق الإيمان من نفاسة وبهجة .. كما يقوم فيه حاسة تبصر « الحق » فى أفعال الناس وأقوالهم ، وتُعرض عما عداه من الأشكال والمظاهر ، إذ الأعمال فى تقديرها إنما هى صور للنفوس يتراءى فيها مالها من إرادات الحق وخصائص الصدق والبر . وعلى قدر مايسفر عنه الاختبار ينزل كلا منزلته . .

وهذا باب متعدد الآفاق بعيد الأعماق ، وله فى المجتمعات طرائقه ، ومنطقه، وآثاره ونسنا بصدد شىء من ذلك فنكتفى بأن نقدم فيه قوله تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ . . وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا[1] ﴾

(ج) إن حب الإيمان وزينته فى قلب المؤمن يفوق حب أى شىء آخر ، لأن الله تعالى هو الذى جعله كذلك ، إذ نماه وضاعفه: (حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ) ، وكذلك جعل الله كره الباطل — وهو الكفر والفسوق والعصيان — يفوق كره أى شىء آخر ... ومن هنا نجد المؤمن — إذ حبب اليه الحق — يغار على حرمته أشد الغيرة . . وإذ كُرِّه اليه الباطل يثور على معالمه أشد الثورة .. وهو فى غيرته على الحق ، وفى ثورته على الباطل مجاهد ، ينفق جهده . . ووقته . . وماله . . ونفسه ، دون أن يدعوه أحد إلى ذلك ؛ لأن الداعى إليه هو النداء العميق الذى يستحثه من داخله : هو الحب المبارك لذى ضاعف الله طاقته ، والبغض المقدس الذى أذكى الله جذوته .. وهو بين الطاقة التى لا مدى لقوتها ، والجذوة التى لا قرار له على لفحها ولهبها ، لا يجد أمامه من شأن فى السلم أو الحرب إلا غاية واحدة حكيمة تتضمن أكرم تكليف ، وتستوعب كل ما لوجوده من مقومات مادية

(١) الكهف : ٢٨

ومعنوية : أن يطهر الأرض من الباطل ، وأن يعمرها بأحكام الحق وأوضاعه ..

* تلك ثلاث حقائق إيجابية تتضمن خصائص الإيمان في النص الكريم ، ومؤداها أن نموذج الصفات الذى نحن بصدده ليس أمرا نظريا لمجرد التقرير وإيراد الفائدة . إنما هو طاقة من الإيجاب لها أذواقها وحواسها على غير ما نعهد من الأذواق والحواس . . ولها إرادتها التى تفرضها على ظاهر الحياة بإقرار مثل وغايات عليا على غير ما يعهد الناس من الغايات والمثل .. ولها ميزانها الذى أبطل عبث الأهواء والغرور فى تقدير الرجال والأعمال . فسلم للحياة أهم مقوماتها بلا زيف .

* وقد تبين بمناقشة هاتين الحقيقتين أن هذا الكيان يجتمع له بحكم الحقيقة الأولى : العلم الذى يتضمن ركائز الحضارات من الحق والخير والعدل . ويجد به الخليفة منهج خلافته شاخصا فى ضميره .. ويجتمع له بحكم الحقيقة الثانية : خصائص الإيجابية النازعه بكل طاقتها لفرض مناهجها فى ظاهر الحياة ، .

فهو — إذا — جهاز منفعل بعوامل المية لتحقيق مقتضيات الخلافة فى الأرض . .

٣ — **الجوهر الروحى للخلافة :**

كل هذا فى تحليل الجانب الروحى لمقومات الخليفة .. ولكن على ذكر من أن مقومات جانبه الحسى . هى جوارح بدنه . ومواهبه الرياضية . وإدراكه الحسى ، وهى المقومات الخاصة بالاتصال بعالم الطبيعة وقوانينه وطاقاته ، لإنشاء ، وصنع ، وإنجاز ما تقتضيه الخلافة من شتى المرافق ومطالب العمارة . .

وتفصيل الكلام فى الجانب الحسى نراه من قبل تحصيل الحاصل ؛ فالحضارة

القائمة تمثله وتفصله علما وعملا ، ونظرا وتجربة ، وتطبيقا ، فالكلام فيه لا يذكرنا بمهمل ولا مجهول . . أما الجانب الروحى فهو المهمل عند الكثير من الناس والمجهول عند أكثرهم . . ذلك إلى أن هذا الجانب هو الوصى أو القيم على إمكانات الجانب الحسى ومواهبه ، ليشغلها بما يرسم لها من غايات الحق وسبل الخير . ويعصمها أن تكون فى ولاية الأهواء الفاسدة المدمرة . . هذا إلى أن الإنسان إذا عرف مقومات هذا الجانب ، وعرف غايته فى الحياة . عرف نفسه ، وعرف مكانه فى الوجود العام ، لا فى هذا الكون الطبيعى فحسب ، وهذا كله لا يجعل الكلام فى الجوهر الروحى للخلافة والخليفة من قبيل تحصيل الحاصل .

لقد قدمنا أن الإنسان جاء هذه الأرض وهو مؤهل بخاصيتين . . إحداها عقلية من شأنها أن ترى الكائنات خلقا معزواً إلى خالقه ، ليس فيها شىء قد خلق نفسه . وهى فى الوقت نفسه صنعه تعالى ، فيها من معالم الإتقان والحسن ، وآثار صفات الجلال والجمال ما يجعل الكون يبدو للفكر معرضا عظيما فريدا لصفحات حافلة بآثار صفات الخالق تعالى . . وتلك الآثار والمعالم تجمعها كلمة « الحق » لأنها آثار صفات الخالق جل شأنه .

وأما الخاصية الأخرى فهى خاصية الروح التى نفخها الله فى الإنسان ، وهى معدن خصائص علوية كامنة فيها كمون البذرة الصالحة فى التربة المباركة الطيبة ، فلا تهتز بالحياة . ولا تؤتى زهرها وثمرها إلا إذا نالت زادها وريها . وما زادها إلا آثار الحق ومعارفه التى قدمنا . .

وهذا أمر خطير ، لم يقدر لحيوان ، أو ملك ، فالإنسان البشر الأرضى جهز

ذهنه بملكات كاشفة يكتشف بها « أفقا علويا » ، غير أفقه هذا الحسى الطبيعى ؛ أفقا ملؤه الحق الذى لاتفنى[١] مادته ؛ وجهز فى الوقت نفسه بخاصية روحية ذات أشواق وحاجات ضرورية إلى مادة هذا الحق . . وسبيل استنزال تلك المادة أو استيرادها من أفقها الأعلى هو أن تكون إرادة الإنسان مع حاجة روحه ، فيوجه خاصيته العقلية إلى مجال رؤيتها ليؤدى حق التفكر فيما فى الخلق من عبر وآيات . . وهذا التفكر — إذا كان سبيل معرفتنا بالله — هو فى الوقت نفسه السبيل — أو الإجراء — الذى نستنزل به ، أو نستورد ما نريد من مادة الحق وخاماته وخيراته .

والخاصية الروحية لا تسعد ولا تقر لمجرد حصولها على ما تريد ، فإن تمام سعادتها أن تعيد تصدير هذه المادة — مادة الحق — إلى أفق حسنا الدنيوى فى صورة أعمال نبتغى بها وجه الله وطاعته . .

لقد وهب الإنسان خاصيته تلك لالتكون مجرد شرف يزكى بشريته ، ويغير خلقته ، وينسبه إلى السماء ، فذلك فهم بعض الصوفية السلبيين ، إنما وهبت له وقد ضمنت من أصول الحق وخصائص الإيجاب لتؤدى مهمة فى الأرض ذات شأن . . فإذا استنزل لها الإنسان واردات الحق من معرفة الله . وتفاعلت حقائق كل منهما بالأخرى نشأت فى الضمير الأذواق الجديدة ، والحواس التى تحدثنا عنها منذ قليل ، فلا تكتمل بهجة الروح ولا تسعد أشواقها إلا أن تصدر حصيلة ما

---

(١) لا نريد بالمادة هنا الاستعمال الذى يقصرها على الاشياء الحسية الكثيفة ، إنما نريد حقيقة المدد الذى يزيد به الخير ويعلو به الشأن على نحو ما جاء فى كتب اللغة « المادة الزيادة المتصلة » وعلى نحو ما جاء فيها أيضا : « الأعراب أصل العرب ومادة الاسلام » وفسره عمر بقوله : « كل ما أعنت به قوما فى حرب أو غيرها فهو مادة لهم » . . والحق على هذا هو المادة الحافلة التى يجد فيها الروح ما يريد من أسباب الخصب والايجاب والثمر

لديها من المعارف والقيم والمثل إلى أفق حسنا الدنيوى ، تحقيقا لمهمتنا ذات الشأن .
ولذا كان العمل فى الإسلام هو الصورة الحسية لحقائق الإيمان ، أو هو الإيمان فى طوره المحس الذى تجد به الإنسانية جناه أو ثمرته الأخيرة ، فلا إيمان بلا عمل لأن حقائقه إذا وجدت فى الضمير تطورت — ولا بد — إلى عمل : ﴿ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ، ولا عمل فى ميزان الإسلام بدون إيمان إلا عمل القلب الفارغ ، فهو صورة بلا روح . .

وذلك مبحث لسنا بصدد تفصيله وإيراد أدلته من كتاب الله ، والمقام يقتضى أن يعلم الإنسان أنه إذ يستمد مثله وقيمه ومادة معارفه وعبره من أفق الحق الأعلى . . الذى قررنا ، لكى يقرها فى هذه الأرض سلوكا وأوضاعا ومعاملات وعرفا صالحا ، إنما يهب لعالمنا الطبيعى هذا أمرا ليس من طبيعته ، أو يدخل على أرضنا هذه لونا ليس من قبيل مادتها وعناصرها . . فهو حامل « روح » من أفق إلى أفق . . وجالب « حق » من كون إلى كون . . وناقل « رحيق » من عالم قدس إلى عالم يراد له أن يتقدس كل ما فيه من أعمال العباد ومجتمعاتهم ... وذلك لب عمل الإنسان فى الخلافة وجمل إشارة إلى خطورة مقامه ، وبهـــــاء مركزه فى الـكون العام !

والآن هل عرف الإنسان « المادة » التى يصنع بها دوره فى الخلافة ؟

ولست أريد المادة المحسة التى يشيد بها المدن والحصون ، والقلاع والأبراج والعمائر والصروح . وينشىء الترع والجسور ، والقناطر والسدود والخزانات . . ويقيم المؤسسات النافعة ، والمصانع ، فإذا الآلات التى تصعد أو تهبط ، أو تجر ، أو تحمل ، أو تدور ، أو تطير . . أو نحوها ، لا أريد تلك المادة التى قوامها الحجر والخشب

وألوان المعدن ، فتلك إمكانات جعلها الله لتكون عدة للإنسان فيما يكون بصدده من مقاصد ومطالب خلافته .. إنما أريد « مادة الحق » التي هي قوام الأعمال كافة ، وروحها ... فعمل الإنسان مؤلف من أمرين : صورة ظاهرة .. وروح باطن .. فالصورة الظاهرة ، هي ماتؤديه الجوارح من حركة منظورة .. والروح الباطن، هو الحق الذي يستنزله الإنسان من أفقه الأعلى ؛ وما على الإنسان إلا أن يجعل أعماله كلها بنية ابتغاء مرضاة الله ، حتى تكون النية قد اسكنت كل عمل من أعماله حظه من روح الحق . . . . ويكون العمل بهذا الروح كائنا حياً له حياته المقدورة بميزان الحق عند الله . .

وإذا كان لب أعمال الخلافة — على ما قررنا — هو اقتباس « روح الأعمال » من عالمها .. وإبداع صورة ظاهرة لها ، كان معنى ذلك أن لب أعمال الخلافة هو « أن يبدع الإنسان نوعا من الكائنات الحية » .. كائنات ليست من قبيل كائنات الطبيعة في الشجر أو الحيوان أو الإنسان .. كائنات من أمر الله ؛ فكل كلمة منه كائن حي .. وكل إشارة وكل نظرة ، وكل حركة ، وكل فعل، كل شيء من ذلك كائن حي، يحيا حياة لا ندري كنهها في ضمير الوجود وظاهره .. ففي ظاهر الوجود يكون للأعمال ثباتها وقوة تماسكها واستقرارها كما يقول تعالى : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[1] وفي ضمير الوجود — أي عند الله — يكون لها حياة تنمو بها وتربو، كما تنمو وتربو أحياء الطبيعة التي نعلمها ، على كيف لا ندريه، ورسول الله صلى الله

---

(١) التوبة : ١٠٩

عليه وسلم يقول : « ان الله يقبل الصدقة ، ويأخذها بيمينه ، فيربيها لاحدكم كما يربى احدكم مهره ، حتى ان اللقمة تصير مثل الجبل [١] » . . والله تعالى يقـول : ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ [٢] ﴾ ، ويقول : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ [٣] ﴾ ، وهو قول عالم السر وأخفى المحيط بما يتضمن ضمير الكون من حقائق وعجائب جلت عن أن تدركها مواهبنا المحدودة بحدود الحس . فلو أتيح لأحدنا أن يبصر المعنويات لابصر تلك الحقائق ، أو تلك الكائنات فى عالمها الحق ، تنمو نماءها وتثمر ثمرها ، ولأدرك بذلك حقيقة المثل فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ، أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . . [٤] ﴾

هذا ، وحياتنا الدنيا تلك ليست هى كل مالنا فى الكون من وجود ، إنما هى طور من أطوار هذا الوجود ، له خصائصه التى تصلة بما بعده ، وهو الدار الآخرة ، فهى بالنسبة للآخرة بمكان المقدمة من النتيجة . . ومن خصائصها أن أعمالنا التى تتضمن روح الحق إنما هى بذور نبذرها ونجنى حقيقة ثمرها فى الآخرة ، بعد أن يكون المؤمن قد جنى منها فى الدنيا عزة التمكين وشرف

---

(١) رواه الترمذى وصححه ، وجاء المعنى نفسه فى حديث آخر رواه البخارى ومسلم والنسائى والترمذى وابن خزيمة فى صحيحه

(٢) البقرة : ٢٧٦ (٣) الروم : ٣٩ (٤) إبراهيم : ٢٤ ، ٢٥

المنزلة . . ولهذا كانت الدنيا مزرعة الآخرة . . وذلك باب خطير من الحقائق لا نعرض له ، وحسبنا أن الله يقول : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ فلنكتف بما قررنا من شأن الخلافة فى الأرض ، ولا شك أنه شأن جليل يعمق فكرتنا عنها ويعلى سعى الإنسان بها فى ظاهر الكون وباطنه ، على مثال يثير الجد والمهابة ، ويرفع قدر الإنسان بين الأحياء ، بل على الأحياء كافة . ويجعل أثره فى الحياة فذا لا يدانيه فى جلالته أثر . . وحسبنا أنه إبداع كائنات عجب من أمر الله ، لها فعل السنن فى تزكية المجتمعات ، وإثراء ضمير الكون بما لا يعلم قدره من الحقائق ، حتى لتكون الكلمة منه ، كشجرة طيبة ، أصلها ثابت ، وفرعها فى السماء .

أيها الإنسان ! هل عرفت من أنت ؟ .. وهل عرفت عظمة وقدر ما أسند إليك ؟ ... إن الملك أعجز من أن يفعل ذلك .. وإن قوانين الطبيعة التى تصنع لنا كل شىء أعجز من أن تفعله ... وإنه تعالى وحده هو القادر على أن يفعله .. ولكنه جل علاه شاء لك أن تنوب عنه فيه ، وأن يستخلفك فيه عنه ، فجهزك بما جهزك ، وإنه لشرف سابغ ، وكرامة عالية أن تقوم عن الله هذا المقام ، وأن تؤدى ما عليك فيه .. فانظر كيف تتجانس مع شعائر هذا التكليف الجليل ؟ .. إن الشيطان حسدك — بل احترق من الحسد — أن وسد إليك هذا المقام الجليل فلم يسجد مع الساجدين لك ، فطرده الله إلى لعنته ، فانظر على ضوء هذا أين تكون ؟ ! !

الباب السابع

من الملأ الأعلى إلى أفق الغرائز

وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة
وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا
هذه الشجرة فتكونا من الظالمين
(البقرة : ٣٥)

اولا : فى الملأ الأعلى

تمهيد :

روى الترمذى فى آخر كتاب التفسير بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : **« لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس ، فقال: الحمد لله ، فحمد الله بإذنه، فقال له ربه : رحمك الله يا ادم ؛ اذهب الى أولئك الملائكة – إلى ملا منهم جلوس – فقل السلام عليكم ... فقالوا وعليك السلام ورحمة الله، ثم رجع الى ربه فقال : ان هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم » .**

فرغنا بعد كل ماتقدم من عرض خصائص تكوين الإنسان أو عناصر « التصميم » الأزلى التى أراد الله سبحانه أن يبرأه على رسومها إنسانا سويا . . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا بهذا الحديث عن بدء ظهور الإنسان ، من حيز التقدير الإلهى إلى حيز الكائنات التى تزاول اختصاصها فى هذا الوجود

ولقد قررنا فى غير موضع مما مضى أن الروح الذى نفخه الله سبحانه ليس مرادا به إجراء الحياة فى كياننا المادى الحيوانى ، إنما هو السر الذى يهب لهذا الكيان خصائص الصفات الكريمة ، ويمده بفقه ونور ومرونة تجعله مهيأ للاستجابة والاتصال بما شاء الله من آفاق هذا الوجود وكائناته الظاهرة والخفية .

فهناك – إذا – نعمتان كبيرتان تملآن كيانه كله .

نعمة الحياة التى يحيا بها بدنه .

ونعمة الروح القدسى الذى يمد هذا الكيان بحياة أسمى من التى يحيا بها .. حياة تنشىء فى النفس عصبا لا كالأعصاب ، عصبا من النور الربانى يصل وجدانه بضمير هذا الوجود ، ويصل ضمير هذا الوجود بوجدانه .. عصبا دائم الاختلاج

والاهتزاز بكل ماللّه من أثر فى هذا الكون ، دقيق التأثر بكل ماله سبحانه من نعمة ، مرهف الحساسية بسر صفاته المبثوثة فى كل ماخلق .. فهو ملكة نورانية تملأ كيانه كله بنور الله ، وبها يكون فقهه وحسن تقديره للقيم المختلفة ، وما يرى له من كريم الصفات وجميل السيرة ، وما يتوالى عليه من أسرار السكينة والتأييد .

فهى حياة لاينمو بها كيانه المادى ، بل يحيا بها وينمو بسرها كائنه المعنوى ، وتثمر له هذا الثمر الذى أشرنا إليه . . أما ثمرها فى أفق محساته فهو تلك المرونة الذهنية الجامعة : التى تصله بما حوله فى أفق الطبيعة ، وتنظم له علاقته به ، وتيسر له سبل تسيره ، والحصول على منافعه.

فى الملأ الأعلى

وقد افتتح آدم عليه السلام وجوده بهذا كله ! . . انبعث كيانه الروحى أمرا من الحس المشرق الدقيق فواجه هذا العالم الأكبر بنور بصيرته ونور بصره

ويحدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أول ما كان من آدم أنه عطس . ولسنا ندعى علم ذلك العطاس، ولانحاول أن نتكلف له علة، فشئون الملأ الأعلى غير شئوننا فى عالمنا هذا الطبيعى ، وكل مالنا من علم به أن آدم عليه السلام رأى فيه نعمة أوجبت أن يفتتح عهده فى هذا الوجود بحمد الله سبحانه .

ولقد شمت الله آدم إذ عطس وحمد ربه ، فقال له : « رحمك الله يا آدم » ولا يجوز أن نتصور لهذا التشميت صورة ما يكون بيننا ، ويكفى أن نشير إلى حالة من صفاء الخاطر ونشاط النفس تحل غالبا بالمرء السليم المعافى كلما عطس ، كأنما تمسه تيار من اليقظة والتنبه ، طرد ما كان فيه من رواكد الأذى ، وأعقب دفقة من الحيوية المجددة يسمو بها الإنسان من حال إلى حال . . وقد عطس آدم

حينئذ فكأنما اندفعت عنه ظلمة الركود ، وأعقبها الشعور ببهجة الحياة وجمال ما أفيض عليه من نعمة وروعة ما يرى فى ملكوت الله من حسن ونور .

ولقد قلنا إن آدم عليه السلام واجه هذا العالم الأكبر بخصائص بشرية ، وخصائص روحانية ... ومن البديهى الذى لابد من الإشارة إليه ، أن ناحية البشرية فيه لم تكن قد زاولت اختصاصها من قبل ؛ ولم يكن لديه من رصيد تجاربها قليل ولا كثير !

والفرق بين خصائص الإنسان البشرية والروحية ، أن البشرية تمثل النواحي القابلة فيه للتطور بحسب كثرة التجارب وقلتها .. أما الروحية فهى من أمر الله ، لاتتغير ولا تتطور ؛ فاستعدادنا الفطرى لمعرفة الله والإيمان به لم يتغير منذ عهد آدم إلى الآن ، ولن يتغير إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . . والنور الذى يسطع على قلب الرجل البدوى فيدرك به روح الخشية من الله ، هو هو النور الذي يسطع على قلب العالم وسط أجهزته ومعامله ، وأمام مناظره ومخابيره ، وإن كان ثم فارق فى عمق النظرة وتنوع معاييرها ، وتعدد آفاقها ، ومايتبع ذلك من غنى الفكرة ووفرة حصيلتها من رحيق العبر ، وحقائق معرفة الله .

ومعنى هذا ، أن آدم عليه السلام واجه هذا الوجود لأول عهده ببشرية ملساء ، غفل من كل تجربة سابقة ، وواجهه فى نفس اللحظة ببصيرة ساطعة ، وملكات روحية مرهفة .. رأى أن المشاعر التى كان يتجاوب بها مع كل ماحوله يغلب عليها العنصر القدسى والاصطباغ بصبغة الجانب الروحى ؛ وبهذا كان عليه السلام إنسانا ساميا جدا ، له تقلب وتصرف فى ملأ ربه الأعلى ، دون أن يجد ضرورة لمجاهدة نفسه استبقاء لهذا النور ، أو يرى حاجة لكبح غرائزه تغليبا

لخصائص الروح ، فإن النور مشرق لاتكدره غريزة ، وخصائص الروح غالبة لاتجد مايناهضها من قبل بشريته .

بين الدين والعلم

والحديث الشريف يحدثنا عن بعض تصرفات آدم عليه السلام فى الملأ الأعلى ، فقد أمره الله سبحانه أن يذهب إلى ملأ من الملائكة فيسلم عليهم ، فذهب وسلم ، فردوا عليه السلام .

والقرآن الكريم يظاهر هذا الحديث ، ويذكر لنا ماهو أعجب من التسليم والتحية : يذكر أن آدم قام من الملائكة مقام المعلم ، فعلمهم بإذن الله مالم يكونوا يعلمون : ﴿ قَالَ يا آدَمُ أَنبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعلَم غَيْبَ السمواتِ وَالأَرْضِ ، وَأَعْلَمُ مَا تُبْدونَ ، وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ؟ ﴾ ، وحسبنا أن أول مايجد دم من تجارب هذا الوجود هو رؤيته الملائكة وهم يسجدون له تحية واحتفاء وولاء .

كيف كان آدم عليه السلام يرى الملائكة ويسلم عليهم ويسلمون عليه ، ويسجدون له ، ويسمع أصواتهم ويسمعون صوته ، ويعلمهم ويتعلمون منه ؟ ، وهل تم ذلك بملكاته الروحية ، أو بحواسه العادية ، أو بهما معا ؟ .

لم يذكر لنا الحديث الشريف ، ولا القرآن الكريم كيفية ذلك ، فلم يبق لنا إلا التسليم بأنه رأى ما رأى ، واتصل به على الهيئة الكاملة التى خلقه الله سبحانه عليها : أى أن عينه العادية رأت ، وأذنه العادية سمعت ، إلى ما كان له من خصائص الإدراك الروحى !

ولقد قضى بعض الناس دهرا يتأرجحون بين الشك فى ذلك واليقين به ، ويميلون إلى تأويل تلك النصوص القرآنية الواضحة تأويلا لا ضرورة له ، إذ

التأويل إنما يكون ضروريا حينما يتعارض النص مع حقيقة علمية ثابتة لا يتطرق الشك إلى صحتها بحال من الأحوال ، فإذا لم يكن هناك تعارض فمن الإثم أن نصرف الكلام عن مواضعه .

أما الاحتجاج بأن عقولنا لا تسيغ ذلك ، فإن العقل ليس حجة إلا فيما له سلطان عليه ، أما ما يخرج عن دائرة سلطانه ويقع فى منطقة غير منطقة نفوذه ، فمن الإنصاف والكرامة ألا نجعله حكما فى نفيه أو إثباته .

ولقد أصبح معروفا عن طريق العلم والدين أن هناك حدودا كونية لا تطيق حواسنا إدراك ماوراءها ، ولا يتسنى للعقل اجتيازها لمعرفة ما هناك من حقائق .. ذلك أن فى هذا العالم من الأشعة الكونية مالا يحيط بعلمه إلا الله ، وأن حواسنا خصت من تلك الأشعة بحيز ضيق جدا لا نستطيع أن نتجاوزه ، فإذا كنا نرى شيئا أو نسمعه فإننا لا نرى ولا نسمع إلا ما تصل إلينا ذبذباته وتموجاته . أما ما يقع فوق هذا الحيز الضيق أو أسفله من سائر الأشعة فآماد شاسعة لا تستطيع حواسنا أن تستجيب لشىء من ذبذباته ، لأنها لم تهيأ إلا للاستجابة لها فى حيزها هذا الضيق المحصور .

والعلم لا يجحد أن فى الكون كائنات غير مرئية لنا ، ولا يجحد أن فيه أصواتا غير مسموعة لآذاننا .

ولا يسبق إلى ذهن أحد أننا نعنى تلك الأصوات البعيدة التى يمكن التحايل على سماعها بالوسائل العلمية « كالتليفون والراديو » ونحوهما ، إنما نعنى أصواتا قد تكون أقرب إلينا من أى صوت آخر ، ولا نسمعها ، لا لخفاء جرسها ، بل لعجز طاقة السمع عن الاستجابة لذبذبتها ! ..

وكما يكون هذا فى الأصوات غير المسموعة يكون فى الكائنات غير المرئية ،

قد يكون الشيء قريبا منا ومع ذلك لا نراه ،لا لأنه يحتاج إلى « مكرسكوب » أو نحوه ، بل لأنه ذو تموجات من قياس لا يتناسب البتة مع ماتستجيب له حاسة الإبصار عندنا .

وفى قاعة الدرس والتجارب العلمية يمكن إحداث أصوات يسمعها الطلاب وأحداث أخرى لايسمعونها ، لعجز آذانهم عن إدراك ذبذباتها .

كذلك يمكن إحماء قطعة من الحديد فى نار حامية حتى تحمر ثم تبيض ، فإذا بلغت الحرارة طاقة معينة يعرفها العلماء خفيت الحديدة عن الأنظار بحيث لا ترى ،لا لأنها تبخرت بل لأن ذبذباتها أصبحت ذات قياس لاندركه عيوننا .

ولا يستبعد العلم أن يتمكن الإنسان يوما ما من إحداث تغيرات فى طاقة السمع والبصر عندنا لنسمع أصواتا لم تكن تسمع ، ونبصر مرئيات لم تكن ترى وصدق قول الله العظيم : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً [1] ﴾ .

ولاشك أن عقائد المؤمنين تجد فى تلك المقررات العلمية ما يتيح لها رسوخا أقوى ، واستقرارا أعمق يزيد بها إيمانها بالله ، وتقبلها لما أنزل علينا سبحانه من وحى مفصل على علم .... ولعل بعض الغيورين الذين يفزعون إلى تأويل كلام الله يدعون مسارعتهم إلى التأويل ، ويطمئنون إلى صدق كلام الله ، وأن مالا يجدون له اليوم تأويلا فى مقررات العلم سيأتى الغد إن شاء الله ، بتأويله ، إنجازا لما قال سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ ، وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٍ [2] ﴾ .

فإذا قررت نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف أن آدم كان يرى

---

(١) الإسراء : ٨٥ (٢) فصلت : ٥٣

الملائكة ، ويستمع إليهم ، ويستمعون إليه ، ويتصل بهم ويتصلون به ، فهو التقدير الحق الذى لا ينكر منه العلم قضية واحدة .

وما يقال عن الملائكة يقال عن إبليس ، فقد رآه آدم وسمعه وهو يحاج الله سبحانه ، وقد رآه وسمعه وهو يقول له : ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ؟ ﴾ ، ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾

وبعد ، فهل كانت حواس آدم عليه السلام وهو بالملأ الأعلى ذات طاقة فى الإدراك والإبصار والسمع ليست لحواسنا، ثم طرأ عليه تحول عضوى بالأكل من الشجرة ، فهبط إلى مستوانا الذى ورثناه منه

أو كان لديه من ملكات الإدراك الأخرى ما استطاع به أن يرى ما يرى ..

ومهما يكن من شىء فإن العلم لا ينكر الجن ولا ينكر الملائكة لأنه لا ينكر وجود أصوات لا نسمعها ، ولا وجود مرئيات لا نستطيع أن نراها بما لنا من حاسة عادية ، ولا يسعنا إزاء ما قدمنا إلا أن نستقبل كلام ربنا بما هو أهل له من اليقين والتسليم غير منكرين منه كلمة واحدة ، ولا متأولين حرفا ، فمن قال به صدق ، ومن حكم به عدل : ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ[1] ﴾ .

---

(١) آل عمران : ٧

ثانيا: نحو أفق الغرائز

غريزة الزوج:

وحين آن لآدم عليه السلام أن يزاول اختصاص بشريته، وأن يتحول إلى أفق غرائزه! كان أول غريزة نودى إليها « غريزة الزوج »، وذلك قوله سبحانه: ﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما﴾.

وليس فى القصة قبل هذا النداء مايشير إلى هذه « الزوج » ولا كيف خلقت ولكنا نقرأ فى مكان آخر من كتاب الله: ﴿خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها[1]﴾.

وهذه النفس الواحدة — بلا نزاع — هى آدم عليه السلام .. وخلق الزوجة من بدن الزوج وانفصالها منه أمر تقرره وتجرى به سنن الطبيعة، فإن تكاثر بعض الأحياء بطريق انقسام بعضها من بعض، ثم تحولها إلى التكاثر بطريق التوالد أمر مقرر علميا ..

فإذا قررت لنا نصوص القرآن الكريم أن أنثى البشر الأول خلقت منه هو نفسه بطريق الانقسام والانفصال، ثم تحولا معا إلى سنة التكاثر بطريق التوالد المعروفة، فهو تقرير يقرره العلم، وتذهب إليه بعض مقرراته المؤكدة الثابتة، ولعل فى ذلك ما يوضح قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **ان المرأة خلقت من ضلع** »[2].

وعلماء النفس يتكلمون عن « الغريزة الجنسية » وعن « غريزة الوالدية »

---

(1) النساء: ١ (٢) من حديث رواه البخارى ومسلم

ولكن ما جاء به القرآن أعمق وأصدق وأشمل ، « فالزوج ضرورة فطرية أعمق مما يتصور الناظر إلى الوالدية ، وشهوة الجنس ، هو نظام أزلى يلتئم به شمل كل ما نرى ، ويصلح عليه وجوده ، ويخرج به ثمره ، والله سبحانه يقول : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ ، ولا يعلم أحد إلا هو سبحانه مدى سعة تلك « الكلية » التى تضمنها قوله : « كل شىء » فإنها فى مفهوم اللغة تنسحب على الأشياء جميعاً ، ما نعلم ومالا نعلم ، من حى وجامد ، وصامت وناطق : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

فنظام « الزوج » ليس دائرة ضيقة ، ولا أفقا محصوراً مقصورا على الإنسان والحيوان والنبات، بل هو سنة كونية دقيقة واسعة المدى، وفطرة أزلية لايلتئم شمل الشىء إلا إذا اتخذت مكانها الطبيعى فى وجوده .. فهناك حنين أزلى ، ونزوع فطرى يتجاذب به « أزواج » النوع الواحد بعضها إلى بعض ، فلا يسعد شوق أحدهما إلى الآخر ، ولا يسكن قلقه ويكمل أمره ويخرج ثمره إلا أن يلتقيا على السنة التى قررها الله سبحانه لأفراد نوعهما ، وهل السالب والموجب فى الكهرباء إلا زوجان ينزع كل منهما إلى الآخر ، ويرنو إلى الاتصال به ، فإذا لم يتصل فهو فى كساد وعطل من حلية الثمر والعمل ، أما إذا اتصلا فما شئت من نار ونور وحركة وقوة وخير ..

وقد خلق الله حواء لآدم ، وما كان سبحانه ليخلقها له إلا لأن خلقها تكملة لنظام وجوده وسداد لفراغ أصيل فى جبلته ، أو لتكون هى الطرف الآخر الذى يكمل به نسقه المعنوى ونسقه الحسى جميعا .

ولأمر ما احتفى القرآن الكريم بذكر ملازمتها له فى الجنة إذ قال سبحانه : ﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ . فهى ملازمة لايغنيه عنها أنه عليه السلام فى الجنة .

وما حكم تلك الملازمة التى يعنى القرآن الكريم بتقريرها بينهما فى ضمير التثنية باطراد إذ يناديهما الله سبحانه : ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ ، وإذ يناديهما : ﴿ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ ﴾،وإذ يناديهما : ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ، وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ؟ فإنا لم نقرأ أن نبيا من الأنبياء توجه إليه الخطاب مع زوجه من الله سبحانه ، إذ هى مكلفة بما خوطب به ، ولا ضرورة لإشراكها معه فى الخطاب لأنها ستتلقاه منه ، وليس لتلك الملاحظة التى لاحظناها من توجيه إلا الاحتفاء « بالزوج » وتقرير مكانه من فطرة البشر الأول ، ولزومه له فى كل مراحل حياته ، وليس من المصادفة أنه سبحانه لما كتب عليه الخروج من الجنة ، أخرج إليه الخطاب مخرج التثنية فقال : ﴿ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ .

فالزوج فى ذاته إن هو إلا شطر سنة من سنن الله يجب أن يلتئم مع شطرها الآخر ، ليكمل وجود المرء ، ويسكن قلقه المتلفت الحيران . وهذا المعنى الدقيق هو الذى يلم به قوله سبحانه : ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا[1] ﴾ .

وليس هذا السكن هو سكن العاطفة العارضة ، أو الشهوة التى ألفت قضاء

---

(١) الأعراف : ١٨٩

الوطر فى هذا المراد : فإن القرآن صريح فى أن السكن حاجة مقصورة على الزوج دون الزوجة ، بينما الشهوة حاجة قائمة بكلا الزوجين (١)

وجمال هذا السكون هو فى سيره على ما خلق الله سبحانه له من سنن .. ومما أكرم الله به الإنسان أنه رزقه لذة الشعور بجمال هذه السنن ، فكلما كانت النفوس راقية ، والفطر صافية كان شعورها بجمال ما خصصت به من سنن الله أوفر ، وكان انجذابها والتزامها لتلك السنن أقوى وأظهر .

وإنك لتجد هذا المنحى الجميل واضحا فى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه كان إذا خرج إلى سفر أقرع بين زوجاته لتخرج معه إحداهن ، وما نحسب أن شهوة الجنس — وهو يدرج إلى الستين — هى التى كانت تملى عليه هذا التصرف ، وإنما هى نفسه الصافية المشرقة التى ما كانت ترى لها سكنا ولا قرارا إلا فى ظل سنة من سنن الله التى أعدت لها . « والزوج » سنة من تلك السنن ... وسره موكوز فى فطرة كل نفس ، فاذا وجد صلى الله عليه وسلم فى نفسه حنينا إلى الزوج فى البيت وإلى الزوج فى السفر ، وإلى « الزوج » حيثما كان ، فهو البشر المثالى الذى تجاوبت خصائص نفسه مع سنن الله فى هذا الوجود ، تجاوب مسرة وإلف وركون إلى جمالها ، وإلى هذا المعنى الدقيق الكريم يشير قوله صلى الله عليه وسلم : « **حبب إلى النساء والطيب ؛ وجعلت قرة عينى فى الصلاة**(٢) » .. فهو عليه السلام لا يرمى إلى معابثة النساء وإصابة ما لديهن من شهوة ، إنما يرمى إلى جمال ما يذوقه فى ظلالهن الرفيقة من لذة الأنس بسنة من سنن الله ..

ولعل مما يشير إلى تلك الفجوة الموحشة التى لا يملؤها فى كياننا إلا « الزوج » وأنها فطرة لنا ، وسنة لازبة لا نستطيع الفكاك منها ولا التعالى عليها أن الله سبحانه

---

(١) قررنا هذا المعنى بإيضاح فى كتابنا الاسلام وقضايا المرأة المعاصرة

(٢) رواه أحمد والنسائى ، والحاكم فى المستدرك ، والبيهقى فى السنن .

جعل الحاجة إليها شارة من شارات الضعف الذى ألزمه خلقه وتنزه عنه سبحانه أن يكون كذلك ، فقال جل شأنه : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (١) ﴾ .

فالله سبحانه لا تحكمه السنن، إنما هو الذى يحكمها ويصرفها ويسيطر عليها ، أما نحن فنظام سعادتنا وجمال حياتنا هو مسايرة تلك السنن والاتساق مع مقتضياتها .

فالقصة الكريمة ـ وهى تقرر غرائز الإنسان الأصيلة فى بدء الوجود ـ جعلت أولى هذه الغرائز « غريزة الزوج »... ونحن وإن كنا بصدد تقرير الغريزة فحسب لا بصدد شرحها وبيان حالها وأثرها الاجتماعى والعمرانى — لا يسعنا أن نهمل الإشارة إلى سكوت علماء النفس وإغفالهم هذا الأفق الوجدانى العميق ، واكتفائهم بما سموه «غريزة الوالدية» ، « والغريزة الجنسية » ننبه إلى ذلك لنشير إلى لون من ألوان عمق الإسلام ودقته وشموله، إذ يحيط بآفاق هذا المعنى إحاطة تلم بما يتعلق بالولد وشهوة الجنس ،وتذهب إلى ماوراء الولد والشهوة من أغوار النفس البعيدة، حيث فطرة الله معدناً ما للإنسان من خصائص الرفعة والتكرمة .. حيث يبدو من عجائب إنسانية الإنسان أنها تنقسم زوجين : سالب وموجب ، وأن كلا من الشطرين يرنو إلى الاتصال بالآخر شوقا لما ينفرد به من خصائص التكرمة ونفائس المثل . « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » والزواج الكامل بين أفراد الإنسان — على هذا — هو ماروعى فيه أن يكون بين إنسانية إنسان وإنسانية إنسانة إلى أنه اقتران ذكر بأنثى .. وأجمل ما فى الإنسان إنسانيته ، فإذا ما حيى كل زوج فى الأفق الإنسانى للآخر فقد حيى فى سماء الجمال التى لا يفتأ يطالعه فيها شموس وكواكب من الفضائل والمحاسن التى لا تقدر بقدر ..

* * *

---

(١) الجن : ٣

غريزة حب الخلود :

فإذا تركنا غريزة « الزوج » عرضت علينا القصة الكريمة غريزة ثانية هى حب البقاء ، أو كما سماها فى القرآن الكريم « الخلود » وذلك حين يقول الشيطان لآدم : ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ ؟ ﴾ ، (مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ ، أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ[1]) .

فرغبة الإنسان فى « الخلود » ليست رغبة عارضة ، بل هى سر مقيم فيه مقامت فيه الحياة ، واستقامت له الظروف على ما يحب ... أى أن اتجاهه إلى « حب الخلود » اتجاه طبيعى دائم غير منقطع ولا موقوت بأجل .. وقد ورد فى البحوث الخاصة بالغرائز عبارات : « المحافظة على النفس » ،« وغريزة المقاتلة» « وغريزة الخلاص أو الهرب» ، « وغريزة الاستغاثه » ، « وغريزة البحث عن الطعام » ، ولا شك أنها كلها معان تهدف إلى التشبث بالحياة ، ومدافعة كل خطر يتهدد بقاء الإنسان ، أى أن ماذهب إليه أصحاب البحوث يندرج تحت الميل الفطرى إلى «الخلود» ، وهو الميل الذى استغله الشيطان فى آدم عليه السلام حين وقف يزين له الأكل من الشجرة .

وقد يبدو للنظرة العابرة أن غريزة « حب الخلود » آصل فى فطرة الإنسان من « غريزة الزوج » فهى أولى أن تقدم عليها فى « قائمة » غرائز الإنسان ، لكن التأمل الدقيق لا يلبث أن يرينا غير هذا !

إذ ما جدوى حياة أو نعيم يشعر فيه المرء بالوحدة ، أو يشعر كأن جانبا من كيانه يملؤه فراغ مقفر ، وخلو موحش... «فالزوج» هو تمام الوجود المعنوى للمرء

---

(١) الأعراف : ٢٠

أو هو السالب للموجب ، والموجب السالب فى حياه الإنسان ... فليتم الوجود أولا ، ثم لنحصل على « البقاء » والتمسك بأسبابه ؟

ولقد مارس آدم عليه السلام رغبات هذه الغريزة فبرزت إلى مجال نشاطها لأول مرة حين رأت فى ثمر الشجرة المحرمة سببا يصلها بسر « الخلود » ... ولبى آدم نداءها واستجاب لتزيينها ، فأكل من الشجرة ، وسجل الرقيب العتيد أن « جهاز الغرائز فى آدم سليم فى هذه الناحية .

غريزة الملك ؛ أو التملك

وثمه غريزة ثالثة تعرضها علينا القصة الكريمة ، تلك هى « غريزة الملك » وهى القوة التى ناغاها إبليس فى آدم ونبهها فى نفسه لأول مرة وهو يقول له : ﴿ هَلْ أدُلُّكَ عَلَى شَجَرةِ الخُلْدِ ومُلْكٍ لاَ يَبلَى[1] ﴾.

وقد تطغى غريزة التملك فى الإنسان فيصير بها عنصر فساد فى الأرض وآلة تخريب وتدمير ، وقد تعتدل وتتعلق بالأهداف السامية فيكون بها عنصر خير وبر وعمارة .

وفى القرآن الكريم مثل تاريخية ، واقعية تبين طغيان تلك الغريزة فى نفوس أصحابها أو اعتدالها ، وتبين أثرها الاجتماعى فى الحالتين ، ولكننا لسنا بصدد بيان شىء من ذلك .

وقد أكل آدم من الشجرة استجابة لداعى تلك القوة الغريزية التى تنزع إلى « ملك » ما يمكن ملكه .

---

(١) طه : ٢

وقد ذكر العلماء فى قائمة غرائز الإنسان « غريزه التملك » وذكروا إلى جانبها « غريزة السيطرة » ... ونحسب أن السيطرة نتوء يتفرع من غريزة الملك ليشمل التسلط على الناس بعد أن شمل معنى السيطرة على ما يحاز من أنواع المال والمتاع ، ولقد يعضد هذا، أنها وردت فى القرآن الكريم بضم الميم فى لفظ « الملك » الجامع لمعنى الحيازة والتسلط على الناس والأموال معا .... ولقد يستأنس له كذلك بكسر اللام فى قراءة ابن عباس : (إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلِكَيْنِ أو تكونا مِنَ الْخَالِدِينَ[1]) باللفظ الجامع لحيازة المال والتسلط على الناس :

* * *

غريزة التدين :

ومن الغرائز الأصيلة فى الإنسان «غريزة التدين » ..ومن مظاهرها الرجوع إلى الله ، والإنابة إليه ، والنزوع إلى غوثه ورعايته سبحانه .

والفرق بين هذه الغريزة وسابقتها أن الأوليات قوى بشرية تعمل فى حقل حيوانية المرء ...أما هذه فذات مجال علوى ،لأنها من خصائص الروح الذى نفخه الله سبحانه فى الإنسان . .. فالأوليات ينزعن به إلى الأرض ، وهذه تذهب به صاعدة إلى السماء .

فإذا ما استحقت الخصائص ذات الاتجاه المادى الحيوانى أن تسمى «غرائز» فأولى ثم أولى أن تسمى فطرة التدين « غريزة » لأن مدد الروح فى الإنسان من أمر الله ، وهو أقوى وأدوم وأصل مما سواه .

---

(١) الأعراف : ٢٠

ويظهر أثر تلك الغريزة بارزا قويا فى حالتين متميزتين :

الأولى: حينما يقع أهل الغفلة والشرود عن الله فى كرب لاتنفع الحيل والأسباب فى دفعه ، وتغدو به حياتهم مهددة بالمصير الذى يجهلون منه ، وإلى مثل ذلك يشير قوله سبحانه: (حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١)) .

فهم حينئذ إنما يندفعون إلى الله بدافع الفطرة المخبوءة التى طالما تجاهلوها ، وأكثروا من إلقاء ركام الغفلة والشهوات عليها حتى خيل إليهم أن ليس فيهم ماينزع إلى السماء ، فلما جاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم ، وعجزت الأسباب أن تمد لهم يدا بمعونة ، تنحت الغفلة ، وانحسر عن أذهانهم غرور الحياة الدنيا، فإذا بالفيض المحتبس ينبجس . وإذا بالقوة المطمور تنبعث، وإذا هم بلسان الفطرة — لا بلسان الإرادة — يذكرون الله الذى نسوا ، ويدعونه تضرعا وخفية : (لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) .

وهذا الصنف من الناس لاخير فيهم غالبا ، فإنهم لايلبثون — إذا نجاهم الله أن يعودوا إلى ما كانوا عليه من الاثم والغفلة : (فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ (٢)) .

أما الحالة الثانية : فتقع لطراز من الناس ألطف حسا ، وأرق بصيرة وأصفى نفسا .. فهم حين لا يستطيعون دفع غريزة، ولا مقاومة ميل إلى إثم ، ولا تبين رشد

---

(١) يونس : ٢٢ (٢) يونس : ٢٣

وسط ما تنشره الشهوة المتلاحظة من ضباب فى أفق صوابه ، فإذا قضت النفس وطرها سكن هائجه ، وخمد ثائره وانحسر ضباب الشهوة عنه ، وصفا أفقه فإذا به أمام صحوة ضمير ، ويقظة روح ، وإشراق نفس ، فيتبين ضعفه أمام ما كان ، ويدركه الأسف ، ويثور به الندم ، وتضيق عليه نفسه ، فلا يجد ملجأ من ضميره إلا أن يقبل على الله تائبا مستغفرا ، ولقد أثنى الله سبحانه على ذلك الصنف من عباده فقال: (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ، وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ، أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ[1])

وتلك الحال الأخيرة تماثل ماذكرت القصة عن آدم عليه السلام ، فإنه ما لبث بعد المعصية أن أشرقت فطرته ، فتبين شناعة ما أتى ، فلم يتمالك أن ضرع إلى الله من ذل معصيته :(رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ[2]) .

وبهذه التجربة الرائعة سجلت القصة الكريمة نشاطا «لغريزة التدين» ، فعلمنا أن الإنسان محكوم بلونين من الغرائز : لون يمد له سبيل الفتنة والمعصية ، وآخر يمهد له سبيل الإنابة والمغفرة ، وذلك هو مقتضى ماسوى عليه من خصائص التراب وخصائص الروح ، فهو متنازع بين هذين الطرفين القطريين : ظلمه ونور دنس وطهر .. معصية وتوبة . . وذلك شأن النمط الأوسط من الناس ، والله يحب التوابين ويحب المتطهرين .

---

(١) آل عمران ، ١٣٥ ، ١٣٦ (٢) الاعراف : ٢٣

وليس من قصدنا أن نفصل أحوال الناس فى التقلب بين هذين الطرفين ، واختلاف حظوظهم من الاستجابة لهذا النوع أو ذاك ، فلذلك مبحث آخر ، فلنسجل ما تنص عليه القصة من أن الخطيئة بعض لوازمنا ، وأن الإنابة إلى الله من أسمى خصائصنا ، وألاّ ذنب مع إنابة ، ولا خطيئة مع استغفار ، ولا عقوبة إلا مع إصرار ، وأنه سبحانه أسرع ما يكون إلى عبده بالقبول حين ينكسر إليه ضارعا من فراش الذلة والخطيئة والمعصية : (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١)) .

* * *

وبعد ، فهذه غرائز أربع كبار ، يتفرع منها سائر ما يعرف الإنسان من غرائز فرعية ، وميول أخر ، ومن مجموعها يتألف ما نسميه : جهاز الغرائز فى الإنسان ، وقد قصت علينا القصة الكريمة نبأ التجربة الأولى لكل غريزة من هذه الغرائز ، وبهذا دخل آدم عليه السلام فى أفق غرائزه بصفة عملية ، وأثبتت خصائص بشريته وجودها وصلاحيتها للاتصال بما حولها .

ولكن القصة الكريمة لم تكتف فى باب الغرائز بتقرير أسمائها ، وتسجيل تجاربها الأولى ، بل مضت فى تعليل انحدارها وهبوطها تعليلا ندرك به سبب العصمة والتماسك كما ندرك به سبب الزلة وانتقاض العروة على نحو ما نرى — إن شاء الله فى الفصل التالى .

---

(١) البقرة : ٣٧

ثالثا . الغرائز بين الفتون والرشد

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ .

فى هذه الآية الكريمة يذكر الله تعالى أن النسيان وامحاء العزم هما سبب هبوط المرء إلى المعصية . .

ونستطيع أن نقول — بناء على هذا — أن التذكر وانعقاد العزم هما سبب صعود المرء إلى الرشد والخير .

والصعود والهبوط — فى هذا المقام — أمران معنويان لايدركان بالحس ، ولا يضبطان بالمشاهدة .. وما لم يكن هناك قياس يعرف به الصعود والهبوط ، أو مالم يكن هناك مثل أعلى ينسب إليه سلوك المرء ، وتقاس به الأقوال والأفعال فيعرف الصالح والفاسد ، والطيب والخبيث فإن السبل تنبهم ، والأعمال تختلط ، والقيم تتشابه ، ويصبح المحسن والمسيء فى ميزان تلك الفوضى متماثلين فى الجزاء والتقدير . . لذا نرى الآية الكريمة قد تضمنت الإشارة إلى ذلك القياس وذلك المثل الأعلى إذ قالت : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ ﴾ . فعهد الله سبحانه من أمر ونهى ، هو المرجع الذى يرجع إليه ليعرف على ضوئه صعود الأعمال أو هبوطها ، حسنها ، أو قبحها ، خيرها أو شرها .

فنحن — إذا — بإزاء أمور ثلاثة تقررها الآية الكريمة بشأن الصلاح والفساد وهى :

* عهد الله الذى يصف لنا الخير فنتبعه ، والشر فنتجنبه .
* نسيان العهد او ذكره .
* امحاء العزم أو انعقاده .

* * *

أولا العهد

وفى القصة عهدان عهد الله بهما إلى آدم . . أحدهما خاص والآخر عام

فالعهد الخاص : حيث أمره الله .. ونهاه . . وحذره

* أمره أن يسكن الجنة هو وزوجه ، وأن يأكلا منها رغدا حيث شاءا

* ونهاه أن يقرب شجرة بذاتها بينها له .

* وحذره الشيطان بقوله : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١) ﴾ .

والعهد العام : يتعلق بفطرته عليه السلام ، إذ يقول تعالى فى تقويمه الروحى ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ ، وإذ يقول تعالى فى تقويمه العقلى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ . وقد قدمنا خصائص كل من التقويم الروحى ، والتقويم العقلى ولاسيما خاصيته المعنوية التى تدرك شواهد الربوبية والخالقية فى الكائنات

ومما قدمنا فى كثير من مواطن هذا الكتاب يتبين أن هذا الروح العلوى ، وتلك الخاصية الفكرية ، هما التأهيل الخلقى الوحيد فى تكوين الإنسان الذى يقيم به شأنه فى هذه الأرض على أساس معرفة الله ، فهما الجهاز الذى سوى عليه جماع تكوين آدم — أو الإنسان — ليكون بمحض التكوين أو الخلقة مفطوراً على معرفة الله . . ولهذا دعاه الله تعالى إلى تلك الخاصية الفطرية ، ليعدل نهج نظره فى الحياة بمعاييرها ، إذ قال : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا (٢) ﴾ . قال القرطبى فى تفسير الفطرة فى تلك الآية : « وقال ابن عطية : والذى يعتمد عليه فى تفسير هذه اللفظة أنها الخلقة والهيئة التى

---

(١) طه : ١١٧

(٢) الروم : ٣٠

في نفس الإنسان التي هي معدة ومهيأة لأن يميز بها مصنوعات الله تعالى ، ويستدل بها على ربه[1] »

فهذا الاستعداد الخلقي الفطري لتمييز مصنوعات الله والاقرار بربوبيته ، هو عهد من الله تعالى لآدم .. عهد تكوين وفطرة ، لاعهد وحي وشريعة .. وإذ كان هذا العهد قد بثت خصائصه وقواه في تكوين آدم ابتداء ، فقد انتقلت إلينا — نحن أبناءه — بطريق الوراثة تلك الخصائص والقوى ، فكانت هي التأهيل الأزلي الذي أعلن عنهم عهد الربوبية إذ قال الله تعالى : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا بَلَى[2] ﴾ ، وبهذا العهد كانت للإنسان كافة — آدم وبنيه — صلاحيته لتلقي وحي الله ، وحمل ما في كلامه ، ورسالته من أمر ونهي ، وحلال وحرام ، وعقيدة وشريعة ..

ولهذا اجتمعت لهذا العهد مزايا العهد العام

* وما ينزل الله من عهد للناس . أي من شرع يأمرهم فيه وينهاهم ، لا ينابذ أحكام هذه الفطرة ، بل يوافقها ويزكيها .. ولو خلا الإنسان إلى فطرته — أي إلى عقله هذا الروحي — لاستقام على عهد الله ، وأفضل ما يتضمن من مثل عليا . . ولكن تلك الفطرة عورضت بما في جانبه الحسي من قوى وميول ، هي التي يسمونها الغرائز .. أو بعبارة أصح عورضت بقابلية هذه الغرائز للانحراف عن هداية الفطرة بما يزين لها الشيطان من غرور وأهداف لا حقيقة لها . . . وقد رأينا فيما تقدم كيف أن الشيطان حين سول لآدم عليه السلام أن يأكل من الشجرة لم يأته من قبل صوابه الروحي ، بل من قبل غرائزه . . حتى تحولت عن عهد الله إلى ما أراد لها من المعصية . . ولكن كيف وقعت المعصية ؟ ! . . أو كيف كان النسيان ، فكانت المعصية ؟ .

* * *

(١) ص ٣٩ ج ١٤ من تفسير القرطبي

(٢) الاعراف : ١٧٢

ثانيا : النسيان

وقد رجعنا إلى ما كتبه المفسرون عن النسيان المسند إلى آدم عليه السلام ، فلم نجد فيه ماينقع غلة أو يشفى علة — كما يقولون — ... نعم لم نجد فى كلامهم ما يبين لنا كيف تكون المعصية مع النسيان ؟. أو كيف يكون فعل الناسى معصية، مع أن الله قد رفع عن عباده الخطأ والنسيان ، وهو سبحانه أجل من أن يعاقب على شىء منه ؟ . . فرجعنا إلى القرآن الكريم نفسه فوجدنا النسيان يدور فيه على عدة معان ، أهمها وأبرزها الوجوه الآتية :

١ — النسيان الذى يطرأ فى الذهن على الحوادث وأسماء الأشخاص ، وما يكون المرء قد حفظ من المقررات العلمية . . وهو نقيض الذكر ، ومثاله قوله تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ[1] ﴾ .

وهذا الضرب من النسيان ليس معنا ، إذ لا يقال إن آدم أكل من الشجرة وليس فى ذهنه شىء من أمر الله ونهيه ، فإن الشيطان قال له : ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾[2] أى أنه ذكره نهى الله وأعاده على ذهنه ، فلا محل لأن يقال إنه عليه السلام أكل وهو ناس .

٢ — النسيان الذى ينطوى على معنى السهو ، كما ينسى الإنسان عصاه أو مسبحته فى مكان ما ، أو كما يريد أن يتكلم مع شخص ما فى عدة أمور ، فيتكلم عن بعضها ويسهو عن بعض ، فلا يذكره إلا فيما بعد ، ومثاله ماحكاه الله سبحانه عن فتى موسى عليه السلام إذ قال : ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ ، فَإِنِّى

---

(١) الأعلى : ٦ (٢) الأعراف : ٢٠

نَسِيتُ الْحُوتَ . الآية ﴾[1] ، وقول موسى للعبد الصالح عليهما السلام : ﴿ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ[2] ﴾

وكذلك نستبعد أن يكون هذا الضرب من النسيان معنا ، فإن السهو يكفي للتنبيه منه أقل إشارة أو حركة أو كلمة ، ولا يعقل أن يكون آدم أكل من الشجرة ساهيا بعد أن ذكره الشيطان بما ذكره به .

٣ ، ٤ — وثم ضربان من النسيان بمعنى ذهاب الاهتمام بالشيء ، ومثاله في القرآن قوله سبحانه : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ[3] ﴾

فالنسيان المسند اليهم معناه ذهاب اهتمامهم بأمره سبحانه ، فإن أحد هؤلاء قد يأخذ في لهو الحديث ويشتغل بالباطل من الغايات ، فإذا ذكرته بأمر الله لا ترى عليه من هزة الاهتمام مثل ما ترى له حين تنبهه أن يأخذ عصاه أو مسبحته التي نسيها ، بل ترى آثار التهاون وقلة المبالاة التي تدل على أن عقدة العهد قد انحلت من ضميره ، وبردت الغيرة عليه في قلبه . . فهو — إذا — من نسيان القلوب ، لا من نسيان الذاكرة ، أو غفلة السهو الطارئة .

أما النسيان المسند إلى الله فليس من نسيان العقول ، ولا من نسيان القلوب تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا — بل معناه أنهم لما نسوا الله وزال اهتمامهم بأمره ، صرف عنهم فضله ووكلهم إلى نفوسهم .

ومن البديهي أن النسيان المسند إلى آدم حين أكل من الشجرة ليس من قبيل النسيان المسند إلى الله جل شأنه ، فلم يبق إلا أنه من قبيل النسيان المسند إليهم ، بمعنى أن قلبه صار إلى لحظة من الفتور عن عهد الله جل شأنه .

---

(١) الكهف : ٦٤ (٢) : الكهف ٧٣ (٣) التوبة : ٦٧

وقد قلنا إن الشيطان لا يأتى الإنسان من قبل صوابه الروحى ، فهو أعجز من أن يواجه هذا النور ، بل يأتيه من جانبه المطاوع — جانب الغرائز — وهو جانب يملك الاستجابة . . ولا يملك التمييز !! يملك الاستجابة لأى نداء ... من الملك ، أو الشيطان .. من الله ، أو من غير الله ! !

وليس له ما يميز به ما يسمع من نداء ، ولا ما يدعى إليه من غاية . . فهو أذن سميعة ، وحركة مطيعة . . وليس عينا تبصر ، ولا عقلا يدبر .

فإذا سول الشيطان لتلك الغرائز أمرا من الأمور ، أوزين لها غاية من الغايات وهو لا يزين لها إلا ما تحبه — لانت لسماعه ، ومالت إلى اتباعه ... وكان لها من اللذة الحالمة ، والسريان العذب ، والإغراء المطمع ، ما يجعل القلب يستحب الركون إليه ، ويأنس لمطاوعته والمزيد منه ، وينصرف بالتدريج عما لديه من أمر الله ، حتى يغدو مشغولا لخواطر جديدة ، وآمال غير التى كان يتعلق بها ، وغايات غير التى كان يرسمها له إيمانه بالله . . وذلك هو النسيان القلبى ! !

* * *

ثالثا : العزم

أما الأمر الثالث فى الآية الكريمة فهو « العزم » فى قوله جل ثناؤه : ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ ، ومن معانى العزم ما جاء فى المصباح المنير : « عزم على الشىء وعزمه ، أى عقد ضميره على فعله » ، وما جاء فى لسان العرب : « العزم ما عقد عليه قلبك من أمر أنت فاعله » .

فإذا نظرنا فى معنى العزم فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ ، كان معناه : لم نجد له ضميراً منعقدا على الفعل ، أو كما يقول البيضاوى : «لم نجد له تصميم رأى وثباتا على الأمر .. ولعل ذلك كان فى بدء أمره قبل أن يجرب الأمور » فتكون جملة : ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾،

بمعنى التفسير للنسيان فى قوله : ﴿ فَنَسِيَ ﴾

وامحاء العزم هو الآفة التى تترتب لا محالة على النسيان القلبى . . . هذا ، ونسيان العهد لا يعنى امحاءه من القلب ، إنما هو تنحيه إلى إحدى زواياه ، فلا يرى منه سوى صورته ، أما حرارته وروحه القوى المنهض فلا .. ومن هنا نرى الكثيرين يحسنون الكلام عن المثل العليا دون أن يؤثر عن أحدهم أنه نهض فعلا بحق ما يتحدث به ، وذلك بعض ما صدق به الشيطان ظنه على كثير من الناس إذ أقسم بين يدى الله سبحانه : ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴾

والتمنية حالة يكون فيها المرء على علم بما جاءه من الله ، دون أن يكون له نهضة إلى تحقيق شىء منه ، كأنما أصابه الشيطان بكساح العزيمة ! وليس هؤلاء من حقيقة الإيمان فى شىء ؛ ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« ليس الايمان بالتمنى ، ولكن ماوقر فى القلب وصدقه العمل ، ان قوما ألهتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا نحسن الظن بالله ، وكذبوا ، لو أحسنوا الظن بالله لاحسنوا العمل له »

وقال الزمخشرى فى تفسير قوله سبحانه : ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ﴾ : « وإذ أبطل الله الأمانى ، وأثبت أن الأمر كله معقود بالعمل ، وأن من أصلح عمله فهو الفائز . . . ومن أساء فهو الهالك ، تبين الأمر ، ووضح وجوب قطع الأمانى ، وحسم المطامع ، والإقبال على العمل الصالح . . . ولكنه نصح لا تعيه الآذان . ولا تلقى إليه الأذهان ! »

* * *

رابعـــا : ختـــام
إلى الأرض

قلنا فيما سبق : إن آدم عليه السلام استقبل هذا الوجود ببشرية ملساء غفل من كل تجربة .. وبروحانية صافية مشرقة لاتكدرها شهوة قائمة ولا ظلمة خطيئة سابقة .. فهو كيان بشرى فى صفاء تام كامل ، يذهب ويجىء فى ملأ ربه الأعلى ، ويسمع ويرى ، ويعمل مايؤمر به ..

أما غرائزه فكانت مستكنة لم تخرج بعد إلى حيز نشاطها الواقعى !

تلك كانت حاله الأولى لحظة استقبل فيها هذا الوجود ، ثم بدأت الغرائز الكامنة فيه تظهر وتنبعث متوالية على النسق الذى سجلته القصة الكريمة :

١ — غريزه الزوج .

٢ — غريزتا حب الخلود ، والملك .

٣ — غريزة التدين .

وقد ذكرنا تلك الغرائز بشىء من التفصيل فيما مضى .

* * *

تطور :

وبظهور تلك الغرائز صار لأبى البشر عليه السلام مزاج نفسانى جديد غير مزاجه النورانى السابق ... مزاج البشر الذى تفجرت فى كيانه خصائص بشريته ، وانتشر فيها ما للغرائز والهوى من كدرة وظلمة .. لا مزاج الروحانية الصافية ، والبشرية الملساء الخالية من كل تجربة ، وذلك تطور نفسانى ، وتحول معنوى ، نلاحظه ونسجله بين يدى تطور آخر من لون آخر سجلته القصة الكريمة ، وكان

له فى حياة آدم — بلا شك — أثر خطير ، ذلك هو ظهور السوءات ، ما كان منها خاصا بالتناسل وغير التناسل .

وقد تولت القصة عرضه فى نسق واضح لا يحتمل الغموض أو الجدل ، فيقول سبحانه :

١ — ﴿ يَابَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا (١) ﴾

فهذا النص الكريم يثبت وجود سوءة لكل من آدم وحواء عليهما السلام .. ويثبت بجلاء أنهما ما كانا يريان تلك السوءات ، وأن الشيطان كان يحتال « ليريهما سوءاتهما » . وأن هذه السوءات كانت مستترة تحت لباس يغطيها ويخفيها .

ويقول سبحانه :

٢ — ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا (٢) ﴾

فهنا أيضا ذكر للسوءات ، ونص على أنها مغيبة عنهما ، وأن وسوسة الشيطان مصوبة إليها ، يريد أن يثيرها من مكمنها ليبدى لهما ما ورى عنهما .

وقد تكلم علماء الإسلام وأئمة التفسير عن هذا اللباس ، فمن قائل : إنه لباس من ريش كان يستر جسميهما ، ومن قائل : إنه كان غشاء يغلف الجسم كله من نوع الأظافر ، ومن قائل غير ذلك .

وليس يعنينا أن نعرف كنه هذا اللباس ، فلن يترتب على معرفته أمر ذو بال ، وحسبنا أنه كان لباسا يستر عن آدم وحواء مالهما من سوءات .

ويقول سبحانه :

٣ — ﴿ فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ (٣) ﴾ ، وبذا تم للشيطان ما أراد .

(١) الأعراف : ٢٧ (٢) الأعراف : ٢٠ (٣) طه : ١٢١

ماذا كانت تلك الشجرة؟ وما خصائص ثمرها ؟ .

وقد قيل فى ذلك ما قيل ، وكله لاسند له من كتاب ولا سنة صحيحة ، وحسبنا أن نعلم أن هناك صلة وثيقة بين طبيعة جسم الانسان ، والتركيب الغذائى لثمر تلك الشجرة ، صلة ترتب عليها ذلك التطور العضوى حين استقبل الجسم ذلك الثمر وأكل منه فانسلخ عنه غشاؤه أو لباسه ، وبدا ما كان مستترا من سوءاته .

هذان لونان من ألوان التطور : أحدهما نفسى انتقل به آدم من حال الصفاء إلى المزاج الذى يختلط فيه النور بشوب الهوى والشهوة ... والآخر عضوى ينتهى بالجسم إلى ظهور ما كان مخبوءاً من أعضاء .

وفى المقام دلالات على تطورات عضوية أشمل من ذلك ، وهى دلالات تدرك بملاحظة القرائن أكثر مما تدرك من نصوص الآيات .

فمن ذلك أن نصوص القرآن الدالة على أن آدم كان يرى الملائكة فى الملأ الأعلى ويكلمهم ويأخذ منهم ويعطى ، تدل كلها على وقائع سبقت الأكل من الشجرة ، أما بعد الأكل ، فإننا لانجد نصا واحداً يدل على أنه استمر يرى ويسمع ما كان يرى ويسمع من قبل ... فهل كانت حواسه عليه السلام وهو بالملأ الأعلى ذات طاقات فى الإدراك والإبصار والسمع ليست لحواسنا ، ثم طرأ عليها تحول عضوى بالأكل من الشجرة فهبطت إلى مستوانا الذى ورثناه منه ؟

إن تلك التغيرات التى ذكرناها ، من نفسية وعضوية إنما هى انتقالات يفقد بها آدم تجانسه مع الملأ الأعلى ليكتسب خصائص التجانس مع الأفق الذى يوشك أن ينتقل إليه ، ولعل مما يؤنسنا فى هذا المعنى قوله سبحانه : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ فالمتبادر إلى الذهن أن « غوى » تحمل معنى الإثم والمعصية ، ولكن المتأمل فى متن الآية لا يلبث أن يرى غير ذلك ، فإن قوله سبحانه

﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ ﴾ يحمل معنى الإثم والمعصية بصفة قاطعة ، فإذا قلنا إن «غوى» يحمل أيضا معنى الإثم والمعصية فقد أجزنا دخول الحشو فى كلام الله ـ حاشاه ـ وهبطنا بالنسق الكريم إلى مستوى من الركاكة يتنزه عنه القرآن كل النزاهة ...

وإنما غوى هنا من « غوى الفصيل » بمعنى فسد جوفه . . ومعصية آدم التى ترتب عليها فساد جوفه وتغير مزاجه هى الأكل من الشجرة ، والمراد هنا فساد عيشه بالجنة واضطراب حاله ، لا البشم الذى يكظ ويتخم المعدة ، والنظم الكريم فى الآية يربط المقدمة بالنتيجة ، ويجعل الفساد مرتبا على المعصية والأكل من الشجرة : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ . فَغَوى ﴾ ، قال القرطبى فى تفسيره الجليل: «فغوى أى فسد عليه عيشه ، وحكاه النقاش واختاره القشيرى ... قال :وهو تأويل حسن وهو أولى من تأويل من يقول : « فغوى » معناه ضل ، من الغى الذى هو ضد الرشد » . أ هـ

ذلك إلى أن خروج آدم من الجنة يشير إلى أنه قد صار إلى حال من التغير أو التطور لا يلائمها البقاء فى الملأ الأعلى ... فإن خروجه منها لا يمكن أبدا أن يكون عقوبة على معصية ، وجزاء على خطيئة . فإنه قد تاب إلى الله ، وتاب الله عليه ، ولا عقوبة مع توبة ولا ذنب مع مغفرة ، بل إن مقتضى التوبة والمغفرة أن يظل على ما كان فيه .. ولكن كيف يظل فيه وقد نبا به الموضع وفقد التجانس معه ، ولكل شىء سننه ، ولكل أفق نظام حياته ؟ .. فإلى الأرض ـ إذاً ـ فهى المأوى الجديد ، والمقام العتيد بعد أن فقد تجانسه مع الجنة : ﴿ اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً ﴾ ، ﴿ وَلَكُمْ فِى الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ ، ﴿ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ ، ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ، وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

والحمد لله رب العالمين .

فهرس

الباب الثالث : أفق الملائكة

٧٣ — ٨٤

الباب الرابع : أفق الشياطين

٨٥ — ١٠٨

الباب الخامس : أفق المادة

١٠٩ — ١١٧

الباب السادس : الخلافة

١١٩ — ١٥٧

الباب السابع

من الملأ الأعلى إلى أفق الغرائز

١٥٩ — ١٨٩

رقم الإيداع ٣٥٨٤ / ١٩٧٤

هـذا الكتاب

- المعروف أن الله خلق آدم من طين ، ثم أسكنه هو وزوجته الجنة ، ولكن الشيطان دلاهما الى المعصية ، فأخرجهما الله من الجنة ، وأهبطهما الى الأرض ..

- فماذا فى هذه القصة من المعارف التى تزكو بها حقيقة الانسان ، ويستنير عقله ؟

- والانسان مع ما عرف من حقائق بطريق نظره فى الكون ، وفيما لديه من تراث بشرى وسماوى ـ **عدا القرآن** ـ لم يصل الى ما يلقى ضوءا على التقويم الخطير الذى يمثل « **انسان** » وتلك الحقيقة تتمثل فى معنى العنوان الذى اختاره « الكسيس كاريل » لكتابه المعروف « **الانسان ذلك المجهول** » .

- **والقرآن الكريم** : ينفرد من كل تراث الانسانية بتحليل تقويم ذلك المجهول ... **تقويمه . الحسى . والروحى . والعقلى** .. وما يتصل بذلك من آفاق الكون . **أفق الروح ، والملائكة ، والشياطين ، والمادة ، والغرائز** .. ويزيد ، فيبين أن الخلافة عن الله تبارك وتعالى ـ هى منهجه فى الأرض ومحور جهوده فى الدنيا .

- **وهذا الكتاب** . يعالج تلك الحقائق ـ لأول مرة ـ بالشرح والتحليل . بأسلوب سهل مبسط ، فى تنسيق جلى ، وافاضة ترضى المتطلعين الى المعرفة ، مع الحرص على ما لها من أصالة ، بحيث تجد فيها الفطرة السليمة مصداق قوله تعالى « **لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم** » .

- ويسر « **مكتبة وهبه** » أن تقوم بنشر هذا الكتاب الذى ينير الطريق أمام الباحثين عن مصادر وكيفية بناء الانسان . ويلقى الضوء على ذلك المجهول .

مكتبة وهبة

